أَثَرُ تَجَرُّدِ الخَطِّ في نشأةِ القراءاتِ القرآنيةِ عندَ المستشرقين - عرض ومناقشة

غانم قدوري الحمد

أستاذ علوم القرآن في جامعة بغداد وتكريت سابقًا - العراق

ملخص البحث: يناقش هذا البحث ما ذهب إليه عدد من المستشرقين من أن أصل القراءات القرآنية يرجع إلى تجرد الخط الذي كُتِبَتْ به المصاحف الأولى من نقاط الإعجام وعلامات الحركات. وجاء في أربعة مباحث: ناقشت في الأول ظاهرة تجرد خط المصاحف الأولى من العلامات، وثَمَّ تعليلان لذلك، الأول: ليحتمل الخط القراءات، والثاني: أن الخط لم تكن فيه تلك العلامات. وعرضت في الثاني نظرية المستشرقين في نشأة القراءات، والتي تتلخص في أن القراءات ناشئة عن تجرد خط المصاحف، وتوقفت عند أبرز القائلين بها، لا سيما المستشرق المجري جولد تسيهر، الذي عزا نشأة القراءات لتجرد الخط، والمستشرق الألماني برجشتراسر الذي قام بتحليل ظواهر القراءات، وانتهى إلى أنه لم يحدث في القراءات السبع إلا استفادة محدودة من الحرية الكبيرة التي أتاحها تجرد الخط من نقاط الإعجام وعلامات الحركات. وعرضت في الثالث وجهة نظر المصادر الإسلامية في أصل القراءات، والتي تتلخص في أنها نتجت عن رخصة الأحرف السبعة، وأن القراء المشهورين الذين تنسب إليهم القراءات أخذوها عن التابعين عن الصحابة، ولم تكن اجتهادًا منهم. وفي الرابع وازنت بين وجهتي النظر في أصل القراءات، وانتهيت إلى أن الاختلاف بين القراءات ليس كالاختلاف في قراءة النقوش القديمة، فليس ثم علاقة بين كاتب النقوش وقارئها، ومن هنا جاء الاختلاف في قراءة كلماتها، أما المصحف فهو محفوظ في الصدور قبل أن يُدَوَّنَ في السطور، وكانت القراءات معروفة قبل كتابة المصاحف، فكيف تنشأ عن خطها؟!

الكلمات المفتاحية: الخط، القراءات القرآنية، المستشرقين، المصاحف الأولى، العلامات الإعرابية

The effect of abstraction of the script in the emergence of Quranic recitations according to Orientalists

Ghanim Al-Hamad

Professor of Quranic Studies at Baghdad University and Tikrit University – Iraq

hamad1370@yahoo.co.uk

Abstract: The Impact of Un-dotted Arabic Calligraphy in the Emergence of the Variant Readings of the Qur'an: The Orientalists' Views. This paper responds to suggestions by orientalists that the origin of variant Qur'anic readings is due to the lack of dots and signs in the first copies of the Qur'anic script. The paper is divided into four sections. In the first section, I discuss the stripping of the initial copy of the Qur'anic script of marks and other signs. I also discuss the two commonly proffered explanations. Secondly, I discuss the theories of the orientalists regarding to the origin of the readings (i.e., that they stem from the un-dotted Qur'anic script), whereby I concur with the most prominent view, particularly as represented by the Hungarian orientalist Goldziher, who attributed the emergence of the readings to un-dotted Arabic calligraphy. I also respond to Berjtsrar, the German orientalist who analyzed the variant readings and concluded that the seven readings are little affected except for a limited benefit gained from the extended freedom afforded by the absence of the dots and vowel signs. In the third section, I present my view based on Islamic sources regarding the origin of the variant Qur'anic readings, which could be summarized as follows: the variant readings are the result of the notion of the "seven letters". The famous reciters of the Qur'an to whom the readings are attributed had learned from the followers of the Companions, and thus they were not relying on their own initiative. In the fourth section, I try to balance the various views and conclude that the differences between the recitations are not the same as those in the readings of the ancient manuscripts for there is no relationship between the author of a manuscript and the one who reads it. As for the Qur'anic scripture, it was memorized before being written down, and the readings were known before the writing. Therefore, how could the variation arise from the script?

Keywords: Script; Quranic Readings; Orientalists; Early Mushafs; Diacritical Marks

للاقتباس: الحمد غ. ق.، «أَثَرُ تَجَرُّدِ الخَطِّ في نشأةِ القراءاتِ القرآنيةِ عندَ المستشرقين - عرض ومناقشة»، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، المجلد ٣٨، العدد الأول

https://doi.org/10.29117/jcsis.2020.0254

© 2020، الحمد، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية بواسطة الوصول الحر ووفقًا لشروط Creative Commons Attribution license CC BY 4.0. هذه الرخصة تتيح حرية إعادة التوزيع، التعديل، التغيير، والاشتقاق من العمل، سواء أكان لأغراض تجارية أو غير تجارية، طالما ينسب العمل الأصلي للمؤلفين.

مقدمة

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على سَيِّدِنا محمدٍ رسولِ اللهِ، أَمَّا بَعْدُ:

فـإنَّ المصاحف الأُولَى كانت قد كُتِبَتْ بخـط مجرد من علامات الحركات، ومن نِقَـاطِ الإعجام التي تميز الحروف المتشابهة في الصورة، وثمة نظريتان لتفسـير تجرد المصاحف من تلك العلامات، الأُولى: أَنَّ المصاحف جُرِّدَتْ لتحتمل القراءات، والثانية: أَنَّ الخط العربي الذي كُتِبَتْ به المصاحف الأولى كان خاليًا من العلامات في وقت كتابتها.

وذهب عدد من المسـتشرقين، ممـن اطلعت على أبحاثهم بالعربيـة، إلى أن الخط المجرد الـذي كُتِبَتْ به المصاحف الأولى كان سببًا لنشـأة القراءات، وأن القراء حين قرؤوا في المصاحف التي بَعَثَ بها الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ إلى الأمصار اجتهدوا في القراءة فيها بحسـب ما يدل عليه السـياق، فاختلفوا لذلك في القراءة، بسـبب تجرد الخط من النقط والشكل.

وأقدم مَن صرَّح بهذا القول، بحسب ما تيسر لي من مصادر، المستشرق الألماني كارل بروكلمان في كتابه (تاريخ الأدب العربي) الذي صدرت طبعته الأولى سـنة ١٨٩٨م، وتناول الفكرة بعده عدد من المسـتشرقين بإيجاز أو تفصيل، وظلوا يرددونها، حتى دخلت الموسوعة البريطانية في تعريفها الموجز بالقرآن الكريم، ورددها بعض المستشرقين المعاصرين مثل المستشرق فرانسوا ديروش في محاضراته في الكولج دو فرانس في سنة ٢٠١٥م.

ولم يكن هذا الأمر خافيًا على المشـتغلين بعلوم القرآن في بلداننا، فقد كُتِبَتْ عدة أبحاث ورسـائل في الرد على هذه النظرية، لكن تجدَّد الحديث عنها في البحوث المعاصرة وتبنِّيها من بعض الباحثين، مسـتشرقين وغيرهم، وما تُشَكِّلُهُ من خطورة على وثاقة النص القرآني، وما فيها من تشكيك في منهج القراء، ومجانبة لوقائع التاريخ، كل ذلك يستدعي إعادة بحثها، وعرض الأسس التي قامت عليها، ومناقشتها من خلال البحث في خصائص الخط العربي القديم الذي كُتِبَتْ به المصاحف الأُولَى، ومن خلال النظر في تاريخ القراءات القرآنية، وفي العلاقة بينها وبين الخط.

ومما دفعني إلى الحديث عن هذا الموضوع من جديد هو الدعوة الكريمة التي تلقيتها من وحدة البحوث والدراسات الإسـلامية في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر، للمشـاركة في المؤتمر الدولي الثامن عن: (الاتجاهات الغربية المعاصرة في الدراسـات القرآنية: إشـكالية الموضوعية والتحيز، رؤية معرفية) الذي أقامته الكلية في ٢-٣ مايو ٢٠١٨م، والكتابة في موضوع (أثر تجرد الخط في نشأة القراءات القرآنية عند المستشرقين).

وتناولت الموضوع أولًا من وجهة النظر الاسـتشراقية، التي تتلخص في أن القراءات القرآنية ناتجة بشـكل أساسي عن تجرد خط المصاحف من العلامات، ثم عرضتُ وجهة النظر الإسلامية في أصل القراءات القرآنية، وتتبعت تاريخها في القرون الثلاثة الهجرية الأولى، ثم ناقشـت وِجْهَتَي النظر تلك، ووازنت بينهما في ضوء مجموعة من الحقائق التاريخية المتصلة بتاريخ تدوين النص القرآني، وتاريخ القراءات القرآنية، وقدَّمت لتلك المباحث بدراسـة عن طبيعة الخط الذي كُتِبَتْ به المصاحف الأولى، ومن ثم جاء البحث في أربعة مباحث هي:

المبحث الأول: كتابة المصاحف العثمانية بخط مجرد من العلامات.

المبحث الثاني: نظرية المستشرقين في أصل القراءات القرآنية.

المبحث الثالث: وجهة نظر المصادر الإسلامية في أصل القراءات القرآنية.

المبحث الرابع: الموازنة بين المذهبين، والترجيح بينهما.

وتنوعت المصادر التي رجعتُ إليها في كتابة البحث، ويمكن تقسيمها على ثلاث مجموعات، الأولى: كُتُبُ المستشرقين وأبحاثهم المتعلقة بتاريخ القرآن بعامة، والمتعلقة بالقراءات القرآنية بخاصة، مما وقفت عليه بالعربية، والثانية: كُتُبُ علوم القرآن والقراءات القرآنية التي تتضمن الحديث عن تاريخ القراءات، والثالثة: الأبحاث المعاصرة التي تتعلق بالموضوع، سواء تلك التي كُتِبَتْ للرد على نظرية المستشرقين مباشرة، أو تلك التي تتضمن معلومات جديدة تكشف عما في تلك النظرية من ضعف.

ولعل من أبرز المعوقات التي صادفتني في كتابة البحث هي عدم القدرة على الاطلاع على جميع كتابات المستشرقين حول الموضوع، وبخاصة المكتوب منها بلغاتهم الأصلية، ومن ثم اكتفيتُ بما اطلعت عليه منها مترجمًا إلى اللغة العربية، وهي تعطي تصورًا واضحًا لوجهة نظرهم التي تكاد تكون مكررة عندهم جميعًا، ومن ثَمَّ فإن الاطلاع على بعضها قد يغني عن الاطلاع على جميعها.

ومن مُحَدِّدَاتِ البحث التي منعتْ من الاسترسال في عرض جميع ما يتعلق بالموضوع على نحو مستفيض عدد الصفحات التي يجب مراعاتها في كتابة البحث، تبعًا للتقاليد التي تُرَاعَى في كتابة البحوث العلمية التي تُقَدَّمُ إلى مثل هذا المؤتمر، وآمل أن يكون ما كتبته في هذه الصفحات قد استوفى أهم النقاط التي تتعلق بالموضوع، وأن تكون النتائج التي انتهى إليها مما يرضي طموح الباحثين عن الحقيقة العلمية المجردة.

هذا، والله تعالى ولي التوفيق.

المبحث الأول

كتابة المصاحف العثمانية بخط مجرد من العلامات

تنبني نظرية نشأة القراءات القرآنية عند المستشرقين على أساس أن المصاحف العثمانية كانت مجردة من العلامات، وهي حقيقة وردت في الروايات التاريخية في المصادر الإسلامية، وأكدتها المصاحف المخطوطة القديمة، ومن المفيد تناول هذه القضية من هاتين الناحيتين، الأولى: الجانب التاريخي للموضوع، والثانية: تعليل تجرد خط المصاحف من العلامات في المصاحف الأولى، وذلك قبل عرض النظريات المتعلقة بنشأة القراءات القرآنية.

المطلب الأول: تجرد الخط من العلامات

مرت كتابة القرآن الكريم، كما تشير الروايات التاريخية، في ثلاث مراحل رئيسة، هي:

المرحلة الأولى: كتابته مفرقًا في الرقاع في زمن النبي ﷺ.

المرحلة الثانية: جَمْعُ الرقاع في صحف منظَّمة في خلافة الصديق رضي الله عنه.

المرحلة الثالثة: نَسْخُ الصحف في المصاحف في خلافة عثمان رضي الله عنه.

وإذا كنا لا نملك نصًا صريحًا عن طبيعة الخط الذي كُتِبَ به القرآن الكريم في المرحلتين الأولى والثانية، فإنه يمكن الاستنتاج بأنه كان مجردًا من العلامات الخاصة بالحركات، وتمييز الحروف المتشابهة في الصورة، قياسًا على تجرد الرسم في المرحلة الثالثة، ومن خلال عدد من الشواهد التاريخية الأخرى، من أبرزها ما وصل إلينا من نقوش ترجع إلى السنين التي تسبق ظهور الإسلام بقليل، وهي مجردة من العلامات، مثل نقش جبل أُسَيْس، الذي يعود تاريخه إلى سنة ٥٢٨م، ونقش حَرَّان اللَّجَا الذي يعود تاريخه إلى سنة ٥٦٨م، وإلى نقوش إسلامية مبكرة مثل نقش القاهرة المؤرخ بسنة ٣١هـ، الموافق لسنة ٦٥٢م تقريبًا.

وهذه صورة نقش جبل أُسَيْس، على الصخر، ومستخلصة منه[١]:

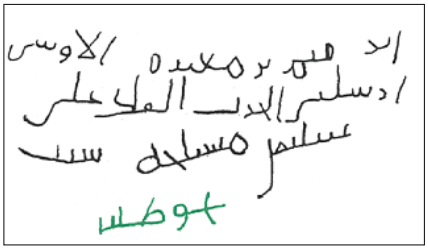

وهذه صورة نقش منطقة حَرَّان اللَّجَا[٢]:

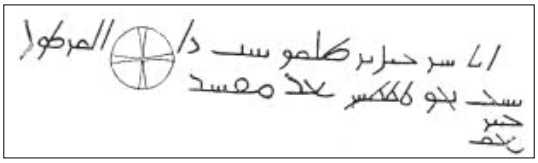

وهذه صورة نقش القاهرة على الصخر، ومستخلصة منه[٣]:

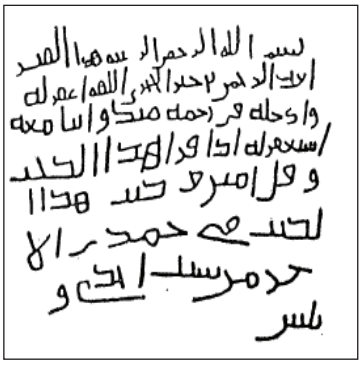

(١) عُثِرَ على هذا النقش سنة ١٩٦٥م في منطقة تبعد ١٠٥ كم جنوبي شرق دمشق عند جبل أسيس، وهذا نص قراءته المتداولة: (إبراهيم بن مغيرة الأوسي أرسلني الحرث الملك على سليمن مسلحة سنت ٤٢٣) بتاريخ بصري، وهو يقابل سنة ٥٢٨م (ينظر: سهيلة الجبوري: **أصل الخط العربي**، ص ٥٣، وكتابي: **علم الكتابة العربية**، ص ٤٦، وبياترس جرندلر: **تاريخ الخطوط والكتابة العربية**، ص ٣٧)، ويمكن مراجعة قراءة بعض كلمات النقش، خاصة كلمة (سليمان)، إذ يمكن قراءتها (أسيس) فتكون أوضح في المعنى، وألصق بالمكان!

(٢) عَثَرَ على هذا النقش بعض المستشرقين سنة ١٨٦٤م، على باب كنيسة القديس جون، بِحَرَّان في منطقة اللجا، وهو مكتوب بالعربية واليونانية، ويُخَلِّدُ اسم باني الكنيسة، وهذا نص قراءة النص العربي المتداولة: (أنا شرحيل بن ظلمو بنيت ذا المرطول سنت ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم)، ويقابل هذا التاريخ سنة ٥٦٨م. (ينظر: صلاح الدين المنجد: **دراسات في تاريخ الخط العربي**، ص ٢١، ورمزي بعلبكي: **الكتابة العربية والسامية**، ص ١٥١، وكتابي: **علم الكتابة العربية**، ص ٤٧، وبياترس جرندلر: **تاريخ الخطوط والكتابة العربية**، ص ٣٨).

(٣) النقش مؤرخ بسنة ٣١هـ (ينظر: **علم الكتابة العربية**، ص ٤٨-٤٩) وسوف أتحدث عن هذا النقش في المبحث الأخير، وأكتفي هنا بالإشارة إلى دلالة النقش على خلو الكتابة العربية من العلامات، في هذا التاريخ القريب من تاريخ نسخ المصاحف العثمانية.

وتتفق الرواية الإسلامية الدالة على تجرد المصاحف العثمانية من النقط والشكل مع دلالة هذه النقوش والكتابات العربية المبكرة، فقد أخرج الداني عن الأوزاعي (عبد الرحمن بن عمرو)، قال: سمعتُ يحيى بن أبي كثير (ت ١٢٩هـ= ٧٤٧م) يقول: "كان القرآن مُجَرَّدًا في المصاحف، فأَوَّلُ ما أَحْدَثُوا فيه النُّقَطُ على الياء والتاء، وقالوا: لا بأسَ به هو نُورٌ له، ثم أَحْدَثُوا فيها نُقَطًا عندَ مُنْتَهَى الآيِ، ثم أَحْدَثُوا الفَوَاتِحَ والْخَوَاتِمَ"[(١)].

ويدل أيضًا على أن المصاحف الأولى كانت مجردة من النَّقْطِ والشَّكْلِ قرائن تاريخية أخرى، منها:

١. نسبة اختراع النقط والشكل إلى أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ=٦٨٨م) وتلامذته في حدود منتصف القرن الأول الهجري، فإنه بعد أن رأى ظهور اللحن على ألسنة الناس، ووقوعَهُ في قراءة القرآن قرر اختراع وسيلة تمنع منه، فاختار كاتبًا فَطِنًا، وقال له: "خُذِ المصحفَ وصِبْغًا يخالف لون المداد، فإذا فَتَحْتُ شَفَتَيَّ فانْقُطْ واحدةً فوق الحرف، وإذا ضَمَمْتُهَا فاجعلِ النقطةَ إلى جانب الحرف، وإذا كَسَرْتُهَا فاجعلِ النقطةَ في أسفله، فإن أَتْبَعْتُ شيئًا من هذه الحركات غُنَّةً فانْقُطْ نقطتين، فابتدأ المصحف حتى أتى على آخره"[(٢)].

٢. كراهة عدد من الصحابة والتابعين إدخال علامات النقط والشكل في المصاحف، واحتجوا بقول عبد الله بن مسعود: "جَرِّدُوا القرآنَ، ولا تَخْلِطُوا به ما ليس منه"، وفي رواية: "ولا تَلْبِسُوا بِهِ ما ليس منه"[(٣)]، وحَمَلَهُ عدد من العلماء على تجريد المصحف من النقط والشكل، ومن علامات الْخُمُوسِ والعُشُورِ ونحوها، قال أبو عُبيد القاسم بن سلام: "وقد اختلفَ الناس في تفسير قوله: (جَرِّدُوا القرآن)، فكان إبراهيم [النَّخَعِيُّ] يذهبُ به إلى نَقْطِ المصاحف... ويقول: جَرِّدُوا القرآن ولا تخلطوا به غيره، قال أبو عبيد: وإنما نرى أن إبراهيم كَرِهَ هذا مخافةَ أنْ يَنْشَأَ نَشْءٌ يدركون المصاحف منقوطةً فَيَرَوْنَ أنَّ النَّقْطَ من القرآن، ولهذا المعنى كَرِهَ مَن كَرِهَ الفواتحَ والعواشرَ... وقد ذهب به كثير من الناس إلى أنْ يُتَعَلَّمَ وَحْدَهُ وتُتْرَكَ الأحاديثُ، قال أبو عبيد: وليس هذا عندي بِوَجْهٍ"[(٤)].

وروى الداني أن عبد الله بن عمر (ت٧٣هـ= ٦٩٢م) كان يكره نَقْطَ المصاحف[(٥)]، وروى أبو عبيد عن إبراهيم النخعي (ت٩٦هـ= ٧١٥م) فقيه أهل الكوفة ومفتيها "أنه كان يكره نَقْطَ المصاحف، ويقول: جَرِّدُوا القرآن ولا تخلطوا به"[(٦)]، ونقل أبو عبيد وابن أبي داود والداني عن كل من الحسن البصري وابن

(١) أبو عمرو عثمان، الداني: **المحكم**، دمشق وبيروت، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، ٢٠١٧، ص ٦٤. **والبيان في عدِّ آي القرآن**، ص ١٣٠.

(٢) أبو بكر محمد، ابن الأنباري: **إيضاح الوقف والابتداء**، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٧١، ١/ ٤١، وينظر: محمد بن إسحاق، ابن النديم: **الفهرست**، طهران ١٩٧١، ص ٤٥، والداني: **المحكم** ص ٨٤.

(٣) أخرجه أبو عبيد في **فضائل القرآن**، دمشق، دار ابن كثير، ١٩٩٥، ص٣٩٢، وابن أبي داود في **كتاب المصاحف**، بيروت دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٢، ٢/ ٥١٤-٥١٥، والداني في **المحكم**، ص ٨٦.

(٤) أبو عبيد القاسم، بن سلام: **غريب الحديث**، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣، ٥/ ٥٥-٥٧.

(٥) الداني: **المحكم**، ص ٨٣.

(٦) **فضائل القرآن**، ص ٣٩٢، وينظر: أبو عمرو عثمان، الداني: **المحكم**، ص ٨٦.

سيرين (تُوُفِّيَا سنة ١١٠هـ= ٧٢٨م) أنهما كَرِهَا نَقْطَ المصاحف[١]، وروى ابن أبي داود عن الأوزاعي أن قتادة (ت١١٧هـ= ٧٣٥م) قال: "وَدِدْتُ أَنَّ أيديَهم قُطِعَتْ، يعني مَنْ نَقَطَ المصاحف"[٢].

وتدل هذه النصوص على أن المصاحف الأولى كانت مجردة من النقط والشكل، وأن العلامات الدالة على الحركات وتمييز الحروف المتشابهة في الصورة حادثة في الكتابة العربية بعد الإسلام، ولو كانت هذه العلامات موجودة في الكتابة العربية لَمَا جَرَّدَ الصحابة المصاحف منها، ثم اضطر التابعون إلى التفكير في وسيلة تستكمل النقص في الكتابة، وتمنع من وقوع اللحن، في محاولات استمرت مئة عام، من زمن أبي الأسود الدؤلي الذي تُوُفِّيَ سنة (٦٩هـ= ٦٨٨م)، مخترع نقاط الإعراب، إلى زمن الخليل بن أحمد الذي تُوُفِّيَ سنة (١٧٠هـ= ٧٨٦م)، مخترع العلامات بالحروف الصغيرة.

وهناك رقوق كثيرة من المصاحف القديمة المجردة من العلامات، لا تزال تحتفظ بها المكتبات في بلدان شتى، وهي تشير إلى تلك المرحلة من مراحل تدوين القرآن الكريم، ويطول الحديث عن تلك الرقاع، وأكتفي هنا بصورة من أحد المصاحف المخطوطة المشهورة المجردة، وهو مصحف جامع الحسين الذي نشره الدكتور طيار آلتي قولاج في إستانبول سنة ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م:

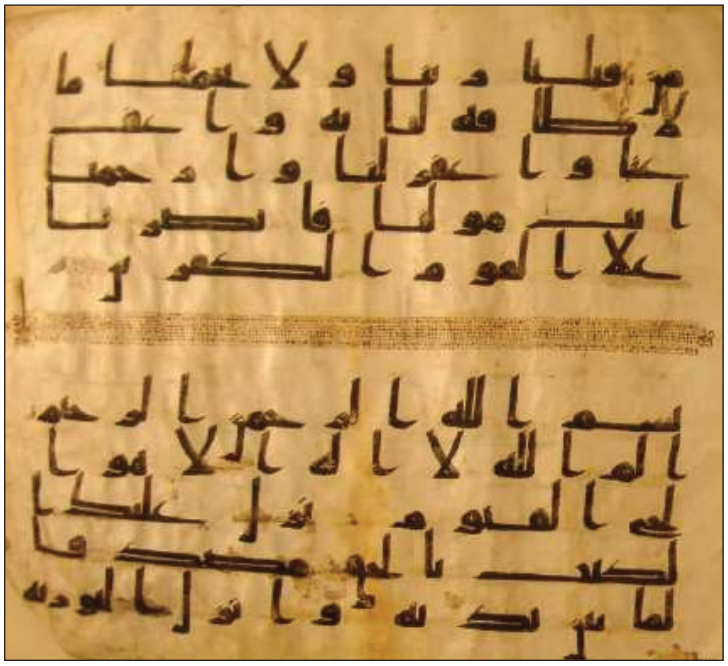

(آخر سورة البقرة وأول سورة آل عمران)

وقد تظهر في بعض الرقوق علاماتُ رؤوس الآي، أو نِقَاطُ الإعجام على بعض الحروف، لكن تلك العلامات تحتمل أن تكون قد أُلْحِقَتْ في فترات لاحقة، ولا يغير ذلك من المقولة المشهورة التي تؤكد أن المصاحف الأولى كانت مجردة من العلامات.

(١) ينظر: **فضائل القرآن**، ص ٣٩٢، وكتاب **المصاحف**، ٢/ ٥٢٢-٥٢٣، **والمحكم**، ص ٨٧.

(٢) ابن أبي داود، **المصاحف**، بيروت، دار البشائر الإسلامية، ٢٠٠٢، ٢/ ٥٢٤.

المطلب الثاني: سبب تجريد خط المصاحف من العلامات

ورد في بعض المصادر القديمة ما يشير إلى احتمال أن تكون العلامات موجودة في الكتابة العربية وقت نسخ المصاحف، لكن الصحابة ﷺ جردوها ليحتمل خط المصاحف القراءات، وهي مسألة قابلة للنقاش.

فقد ذهب عَدَدٌ من علماء السلف إلى أنَّ الصحابة ﷺ جَرَّدُوا رسم المصحف من النَّقْط والشَّكْلِ لِيَحْتَمِلَ خَطُّهُ القراءاتِ، قال الداني: "وإنما أَخْلَى الصَّدْرُ منهم المصاحف من ذلك ومن الشكل من حيث أرادوا الدلالة على بقاء السَّعَة في اللغات والفُسْحَةِ في القراءات التي أَذِنَ الله تعالى لعباده في الأخذِ بها والقراءةِ بما شاءت منها، فكان الأمر على ذلك إلى أَنْ حَدَثَ في الناس ما أَوْجَبَ نَقْطَهَا وشَكْلَهَا"(١).

وقال أبو الفضل الرازي (ت٤٥٤هـ= ١٠٦٢م): "مِن تَوَسُّعِهِمْ في خَطِّ المصحفِ لِيُمْكِنَ القراءةُ من الصورةِ الواحدةِ فيه أوجهًا من الأحرفِ السبعةِ، هو كتابتهم المصاحف غُفْلًا دون إعجام ولا نقط ولا شكل..."(٢).

ونحا هذا المنحى في تعليل تجريد المصحف شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ= ١٣٢٨م)، حيث قال: "وسبب تَنَوُّعِ القراءات فيما يَحْتَمِلُهُ خَطُّ المصحف هو تجويزُ الشارعِ وتَسْويغُهُ ذلك لهم؛ إذ مرجع ذلك إلى السُّنَّةِ والاتِّبَاعِ، لا إلى الرأي والابتداع... وهذا من أسباب تَرْكِهِم المصاحف أَوَّلَ ما كُتِبَتْ غيرَ مشكولةٍ ولا منقوطةٍ، لتكون دلالة صورة الرسم مُحْتَمِلَةً للأمرين، كالتاء والياء، والفتح والضم، وهم يضبطون باللفظ كلا الأمرين، وتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين الْمُتَلُوَّيْنِ شبيهًا بدلالة اللفظ الواحد على كلا المَعْنَيَيْنِ المعقولَيْنِ المفهومَيْنِ"(٣).

وقال شمس الدين ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ= ١٤٢٩م):"ثم إن الصحابة ﷺ لَمَّا كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العَرْضَةِ الأخيرة مما صَحَّ عن النبي ﷺ، وإنما أخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولَيْنِ المسموعَيْنِ الْمُتَلُوَّيْنِ شبيهةً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المَعْنَيَيْنِ المعقولَيْنِ المفهومَيْنِ"(٤).

ويُفْهَمُ من هذه النصوص أن النقط والشكل كانا مستعملين في الكتابة العربية في عصر نسخ المصاحف، لكن الكُتَّابَ جَرَّدُوا الرسم منهما، وقد دلت الدراسات الحديثة في تاريخ الخط العربي القديم أنَّ الكتابة العربية في عصر تدوين القرآن الكريم كانت مُجَرَّدَةً أصلًا، فلم تكن علامات الحركات قَدِ ٱخْتُرِعَتْ، ولا نقاط الإعجام قَدِ ٱسْتُعْمِلَتْ، ومن ثم فإنَّ المصاحف كُتِبَتْ مُجَرَّدَةً بناء على ذلك، لا أنَّ الصحابة جَرَّدُوها من العلامات لتحتمل القراءات(٥).

---

(١) الداني: **المحكم**، ص ٦١، وينظر: أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية: **شرح حديث أُنْزِلَ القرآن على سبعة أحرف**، إربد، عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٩، ص ١٢٧، وأبو الخير محمد، ابن الجزري: النشر ١/ ٣٣.

(٢) أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد، الرازي: **معاني الأحرف السبعة**، دار النوادر، ٢٠١٢، ص ٤٨٤-٤٨٥.

(٣) أحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية: **شرح حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف**، ص ١٢٦-١٢٧.

(٤) أبو الخير محمد، ابن الجزري: **النشر**، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١/ ٣٣.

(٥) ينظر في مناقشة هذه المسألة بحث: مراجعة عدد من النظريات المتعلقة برسم المصحف في ضوء علم الخطوط القديمة، ضمن كتاب **أبحاث في رسم المصحف وضبطه**، ص ٢٧.

ومن اللافت للنظر أن الداني الذي قال بتجريد المصاحف لتحتمل القراءات صرَّح بأن العرب لم تكن أصحاب شكل ونقط، فقال وهو يعلل زيادة بعض الحروف في رسم بعض الكلمات: "وذلك أَنَّ العَرَبَ لم تكُنْ أَصحابَ شَكْلٍ ونَقْطٍ، فكانت تُصَوِّرُ الحركاتِ حروفًا، لِأَنَّ الإعرابَ قد يكونُ بها كما يكونُ بِهِنَّ، فتُصَوَّرُ الفتحةُ أَلِفًا، والكسرةُ ياءً، والضمةُ واوًا، فَتَدُلُّ هذه الأَحْرُفُ الثلاثةُ على ما تَدُلُّ عليه الحركاتُ الثلاثُ مِنَ الفتحِ والكسرِ والضمِ. ومِمَّا يَدُلُّ على أَنَّهُمْ لَمْ يكونوا أَصحابَ شَكْلٍ ونَقْطٍ، وأَنَّهُمْ كانوا يُفَرِّقُونَ بينَ المُشْتَبِهَيْنِ في الصورةِ بزيادةِ الحروفِ، إِلْحَاقُهُمُ الواوَ في (عَمْرٍو) فَرْقًا بينَه وبينَ (عُمَرَ)..."[1].

وقال في موضع آخر: "كانتِ العربُ تُصَوِّرُ الحركاتِ حروفًا، وتُفَرِّقُ بها بينَ إعرابِ الكَلِمِ، فَتَجْعَلُ الفتحةَ أَلِفًا والكسرةَ ياءً والضمةَ واوًا، لأَنَّها لم تَكُنْ أَصْحَابَ نَقْطٍ وشَكْلٍ، وإِنَّما حَدَثَ ذلك مِن بَعْدِ ٱستعمالِهَا هذا في زَمَنِ الصحابةِ، رضوانُ اللهِ عليهم"[2].

وسوف أناقش موضوع علاقة القراءات القرآنية برسم المصحف في ضوء هذه النتيجة التي تؤكد تجرد الكتابة العربية من العلامات، وخلوها منها أصلًا في عصر تدوين القرآن في عصر النبوة والخلافة الراشدة، وأناقش ما ذهب إليه المستشرقون من أن الخط المجرد الذي كُتِبَتْ به المصاحف كان سببًا لنشأة القراءات.

المبحث الثاني

نظرية المستشرقين في أصل القراءات القرآنية

تناول المستشرقون تاريخ القرآن بالدراسة، وترجموا معانِيَهُ إلى لغاتهم، وهم ينطلقون في دراساتهم تلك من مُسَلَّمَات يتمسكون بها، انعكست على تفسيرهم عددًا من الظواهر المرتبطة بالقرآن الكريم، مثل ظاهرة الوحي، ومصدر القرآن، وتعدد القراءات، وتنوع الرسم، واختلاف مصاحف الصحابة.

ولا يتسع البحث لدراسة جميع تلك المسائل، لأنه مخصص لبحث قضية واحدة منها، وهي نظرية المستشرقين في أثر الخط الذي كُتِبَتْ به المصاحف الأولى في نشأة القراءات القرآنية، وسوف أتتبع وجهة نظرهم في ذلك من خلال ما تُرْجِمَ إلى اللغة العربية من جهودهم، وما كتبه بعضهم بالعربية، في مقدمات بعض الكتب التي حققوها.

وسوف أعتمد في استجلاء أبعاد نظريتهم على البحوث التي كتبوها مباشرة، وليس على ما كُتِبَ في الرد عليها، حتى تكون نصوصهم ناطقة عن مواقفهم وآرائهم، ولا يمنع ذلك من الإفادة من تلك الردود في مناقشة الأفكار التي تبنوها، وليس الهدف هو الانتصار لفريق على فريق، وإنما الوصول إلى الحقيقة العلمية المجردة عن الهوى والتعصب، بقدر الإمكان؛ لأن الموضوع يتعلق بالقرآن الكريم، الذي نعتقد نحن المسلمين بأنه وحي إلهي، وأنه يحمل آخر رسالة إلى البشرية، ولا شك في أن الأحكام المسبقة المجافية لحقائق التاريخ تعد خيانة للأمانة العلمية، وحجبًا لنور الهداية عن البشرية التي هي أحوج ما تكون إليه.

(١) أبو عمرو عثمان، الداني: **المحكم**، ص ٣١٥.

(٢) نفسه ص ٣٢٨.

ومما يلفت النظر في كتابات المستشرقين عن موضوع القراءات القرآنية أن أكثرهم ردد مقولة أثر الخط في نشأة تلك القراءات، وإن اختلفت طريقتهم في التعبير عنها، أو الاستدلال لها، وإطالة الوقوف عندها، ومع ذلك فإن هناك مَن تشكك منهم في أن يكون لتجرد الخط ذلك الأثر الكبير في نشأة القراءات، وهو ما قال به الكثير منهم، وقد ظلَّ صوت القائلين بذلك الأثر عاليًا، وغَطَّى على محاولات بعضهم النظر إلى القضية نظرة موضوعية مجردة.

المطلب الأول: بدايات النظرية

قد يصعب الآن وضع مخطط تاريخي لنشأة الفكرة وتطورها عند المستشرقين، وتحديد أول من ذكرها، ولكن يمكن تتبع ظهور الفكرة في المصادر التي وقفت عليها، ولعل ما كتبه المستشرق المجري أجناتس جولدتسيهر في كتابه (مذاهب التفسير الإسلامي) هو أوسع ما كُتِبَ عن هذه النظرية والاستدلال لها، لكن يبدو أن هناك إشارات في كتابات بعض المستشرقين قبله أرشدته إليها.

فقد وجدت المستشرق الألماني كارل بروكلمان يقول في الجزء الأول من كتابه (تاريخ الأدب العربي) الذي صدر سنة ١٨٩٨م: "حقًا فتحت الكتابة، التي لم تكن قد وصلت بعد إلى درجة الكمال، مجالًا لبعض الاختلاف في القراءة، ولا سيما إذ كانت غير كاملة النقط، ولا مشتملة على رسوم الحركات، فاشتغل القراء على هذا الأساس بتصحيح القراءات واختلافاتها[(١)]".

ولم أقف على نص صريح يشير إلى هذه النظرية في أشهر كتاب عن تاريخ القرآن عند المستشرقين، وهو كتاب المستشرق الألماني تيودور نولدكه[(٢)]، الذي ولد في مدينة هامبورج سنة ١٨٣٦م، والتحق في سنة ١٨٥٣م بجامعة توبنجن، ودرس اللغات الشرقية، وكتب في سنة ١٨٥٦م أطروحته للدكتوراه (حول تركيب ونشوء السور القرآنية)، وقام بتطويرها إلى كتاب (تاريخ القرآن) ليظهر بطبعته الأولى سنة ١٨٦٠م. وأعاد نشره تلميذه فريدرش شفالي مستفيدًا من ملاحظات المؤلف الذي كَتَبَ مقدمة الطبعة الجديدة، فصدر الجزء الأول منه سنة ١٩٠٩م، ثم صدر الجزء الثاني منه بعد وفاة شفالي سنة ١٩١٩م، بإشراف أوغست فيشر، وأكمل المستشرق برجشتراسر كتابة الجزء الثالث، وتولى تلميذه أوتو برتزل الإشراف على طباعته سنة ١٩٣٧م، وقامت مؤسسة مونراد-أدناور الألمانية بدعم تعريب الكتاب بأجزائه الثلاثة ونشره سنة ٢٠٠٤م[(٣)].

ويُعَدُّ كتاب (تاريخ القرآن) لنولدكه أهم مرجع عند المستشرقين للدراسات القرآنية، فقد قال جولد تسيهر وهو يتحدث عن القراءات القرآنية: "وقد عالج هذه الظاهرة علاجًا وافيًا، وبَيَّنَ علاقتها بفحص القرآن، زعيمنا الكبير

(١) كارل، بروكلمان: **تاريخ الأدب العربي**، مصر، دار المعارف، ١٩٨٣، ١/ ١٤٠، وينظر ٤/ ١.

(٢) وجدت جولدتسيهر يحيل على الطبعة الأولى من كتاب نولدكه **تاريخ القرآن** عند حديثه عن أثر تجرد الخط في نشأة القراءات (مذاهب التفسير الإسلامي ص ٩ هـ ١، وص ١٣ هـ ١)، لكنني حين تتبعت الموضوع في الطبعة المترجمة إلى اللغة العربية لم أجد ما يتعلق بالموضوع إلا في الجزء الثالث الذي كتبه برجشتراسر بعد وفاة نولدكه.

(٣) ينظر في التعريف بالمؤلف نولدكه، والتعريف بالكتاب وتاريخ تأليفه: نجيب العقيقي: **المستشرقون**، مصر، دار المعارف، ١٩٦٤، ٢/ ٧٣٨-٧٣٩، ومقدمة المترجم لكتاب **تاريخ القرآن**، ص ١١ من المقدمة.

تيودور نولدكه في كتابه الأصيل البكر تاريخ القرآن، الذي نال جائزة أكاديمية النقوش الأثرية بباريس"[١]. ووصفه آرثر جفري بالكتاب الجليل، وقال عنه بأنه "الآن أساس كل بحث في علوم القرآن في أوروبا"[٢].

وقد تصفحت الكتاب بأجزائه الثلاثة فلم أقف على نص واضح يشير إلى تلك النظرية في الجزأين الأول والثاني من الكتاب، لكن برجشتراسر أشار إليها في الجزء الثالث من الكتاب الخاص بالقراءات[٣]، وقلل من شأنها في وجود القراءات القرآنية، وكأنه يرد بذلك على ما ذهب إليه جولدتسيهر، وسوف أعود لمناقشة وجهة نظره بعد أن نقف على هذه النظرية عند أبرز أعلامها جولدتسيهر.

المطلب الثاني: نظرية جولدتسيهر في نشأة القراءات

كان المستشرق المجري إجناتس جولدتسيهر (١٨٥٠-١٩٢١م) أكثر المستشرقين وقوفًا عند نظرية أثر تجرد الخط في نشأة القراءات، وذلك في كتابه (مذاهب التفسير الإسلامي)، الذي صدر في مدينة لايدن سنة ١٩٢٠م، وترجمه إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار، وصدر في القاهرة سنة ١٩٥٥م.

ويَعُدُّ جولدتسيهر القراءات القرآنية أولى مراحل تفسير القرآن الكريم[٤]، ومن ثم تناول القراءات وما يتعلق بها في الفصل الأول من الكتاب (ص٦-٧٢)، وبدأ مباحثه بعبارة مضللة، وهي قوله (ص٦):"ليس هناك نص موحد للقرآن، ومن هنا نستطيع أن نلمح في صياغته أولى مراحل تفسيره"، وهو يقصد بقوله بعدم وجود نص موحد للقرآن القراءات القرآنية، وهذه عبارة مضللة كما قلت، فالقراءات ليست أكثر من اختلاف القراء في نطق كلمات لا تتجاوز نسبتها عشرة في المئة من مجموع كلمات القرآن، وهي في جميع صورها لا تقدِّم نصًا مختلفًا للقرآن الكريم.

وناقش جولدتسيهر في هذا الفصل عددًا من القضايا المرتبطة بالقراءات القرآنية، وقسمه على قسمين، بدأ القسم الأول منهما بالحديث عن أثر الخط في نشأة القراءات (ص٨-١٥)، وهو موضوع هذا البحث، ثم تحدَّث عن القراءات التفسيرية المنسوب أكثرها إلى عبد الله بن مسعود وأُبَيِّ بن كعب، بزيادة كلمة أو استبدالها (ص ١٥-٤٦)، وختم هذا القسم بالإشارة إلى آيات فيها تباين إعرابي، مثل (لكنِ الراسخون في العلم منهم... والمقيمين الصلاة) [النساء ١٦٢].

وتحدَّث في القسم الثاني (ص ٤٨-٧٠) عما عبر عنه بحرية القراءة للنص الكريم، وأورد روايات غير مشهورة تشير إلى زيادة أو تغيير في النص، مثل الرواية التي تذكر أن عليًا ﷺ قرأ: (وطلع منضود) مكان ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة ٢٩]، وذكر أن حديث نزول القرآن على سبعة أحرف قد أضفى الشرعية على القراءات القرآنية، لكن بحدود وشروط تُقَيِّدُ ما سماه حرية القراءة، في مقدمتها أن تكون القراءة مروية، وصارت القراءات المقبولة سبعًا، واستطرد إلى محاولات الخروج على ذلك التقليد، وذكر قصة ابنِ شَنَبُوذٍ الذي قرأ بما رُوِيَ من قراءات مخالفة لخط المصحف، وقصة ابن مقسم

(١) إجنتس، جولدتسيهر: **مذاهب التفسير الإسلامي**، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٥٥، ص ٧.

(٢) مقدمة تحقيق كتاب **المصاحف**، ص ٤.

(٣) قال برجشتراسر في الجزء الثالث من الكتاب (ص ٦٦٨): "لم يحدث في القراءات السبعة (كذا) إلا استفادة محدودة من الحرية الكبيرة التي أتاحها غموض الخط الكوفي الذي كان سببه نقص نقط الحروف"، وكأنه ينفي في هذا القول أن يكون لتجرد الخط أثر كبير في نشأة القراءات القرآنية، ذلك الأثر الذي بالغ فيه جولدتسيهر.

(٤) ينظر: إجنتس، جولدتسيهر: **مذاهب التفسير الإسلامي**، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٥٥، ص ٦.

العطار الــذي قرأ بما يجوز في العربية، وإن لم يكن له رواية، وكلا الموقفين يدلان على أن حرية القراءة التي يتحدَّث عنها جولدتسيهر لم تكن منهجًا معتمدًا مهما كانت مكانة مدعيها العلمية.

والذي يعنينا من موضوعات هذا الفصل هو حديثه عن أثر تجرد الخط في نشــأة القراءات، وهو أكثر جوانب الفصل إثارة وخطورة، حيث قال: "وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربي، الذي يقدِّم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة، تبعًا لاختلاف النِّقَاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النِّقَاط، بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية، يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربية الأصيلة ما يحدده، إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة، وبهذا إلى اختلاف دلالتها، وإذن فاختلاف تحلية هيكل الرســم بالنقط، واختلاف الحركات في المحصول الموحد القالب من الحروف الصامتة، كانا هما الســبب الأول في نشأة حركة اختلاف القراءات في نص لم يكن منقوطًا أصلًا، أو لم تُتَحَرَّ الدقة في نقطه أو تحريكه"[(١)].

وقدَّم بعد قوله هذا أمثلة حاول الاستدلال بها على أثر الخط في نشأة القراءات، فذكر من الأمثلة التي أرجعها إلى عدم وجود نقط الإعجام الذي يميز بين الحروف المتشابهة في الرسم :

١. في ســورة الأعراف: ﴿قَالُواْ مَــآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَــا كُنتُمۡ تَسۡــتَكۡبِرُونَ﴾ [٤٨]، ذكر أن بعضهم قرأ (تَسْتَكْثِرُونَ) بالثاء بعد الكاف.

٢. وفي نفس السورة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ [٥٧]، قُرئت (نُشْراً) بالنون بدل الباء.

٣. وفي ســورة التوبة: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡــتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [١١٤]، بالياء، ذَكَرَ أن حماداً الراوية قرأ (أباه) بالباء الموحدة.

٤. وفي سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾ [٩٤]، قُرِئَتْ (فَتَثَبَّتُوا).

٥. وفي سورة البقرة: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [٥٤]، ذَكَرَ أنها قُرِئَتْ (فَأَقِيلُواْ أَنْفُسَكُمْ).

٦. وفي ســورة الفتح: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُــولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾ [٨-٩]، ذَكَرَ أنها قُرِئَتْ (وَتُعَزِّزُوهُ)[(٢)].

وذَكَرَ من الأمثلة التي استدل بها في أثر عدم وجود علامات الحركات في الخط على نشأة بعض القراءات :

٧. في سورة الحجر: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [٨]، قُرِئَتْ: (نُنَزِّلُ وتَنْزِلُ وتُنْزَلُ).

٨. في سورة الرعد: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [٤٣]، ذَكَرَ أنَ عدة قراءات وردت في هذه الآية: (وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ ٱلْكِتَاب) ، و(وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ ٱلْكِتَاب).

(١) إجنيتس، جولدتسيهر: **مذاهب التفسير الإسلامي**، ص ٨-٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٩-١٣.

٩. في سورة المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [٦]، ذَكَرَ أنَّ (أرْجُلَكُمْ) قُرِئَتْ بكسر اللام أيضاً[١].

إن الأمثلة التي أوردها جولدتسيهر خلط فيها بين القراءة الصحيحة المتواترة وبين القراءة الشاذة أو التي لم يُعْرَفْ أن أحدًا رواها أو قرأ بها. فالمثالان رقم (٢ و٤) هما قراءتان صحيحتان، فقد قرأ عاصم (بُـشْرا) في الأعراف [٥٧] بضم الباء وإسكان الشين، وقرأ ابن عامر بالنون وضمها وإسكان الشين (نُـشْرا)، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون وفتحها وإسكان الشين (نَـشْرًا)، وقرأ الباقون بالنون وضمها وضم الشين (نُـشُرًا)، وكذلك قرؤوا في الموضعين الآخرين في الفرقان [٤٧] والنمل [٦٣][٢]، وفي قوله سبحانه في النساء [٩٤] في الموضعين، وفي الحجرات [٦] قرأ حمزة والكسائي وخلف في الثلاثة المواضع: (فَتَبَيَّنُوا)، وقرأ الباقون: (فَتَبَيَّنُوا)[٣]. كذلك رقم (٩) فإن كِلَا القراءتين صحيحة، فقد قرأ كل من نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب وحفص (وأرجلَكم) في المائدة [٦] بنصب اللام، وقرأ الباقون بالخفض[٤].

وإلى جانب هذه القراءات الصحيحة أورد جولدتسيهر قراءات شاذة وغير معروفة ومنكرة في الأرقام (١ – ٣– ٥ – ٦)[٥]. وخلط قراءات صحيحة وأخرى شاذة في رقم (٧ و٨)[٦]. وما ثبت من قراءات في هذه المواضع هو المعتمد، وما سواه شاذ بل هو منكر لا يعد قراءة، فقد نص جولدتسيهر في رقم (٣) أن حمَّادًا الراوية قرأ (أباه) بالباء.

إن القراءة التي ينسبها جولدتسيهر إلى حماد الراوية ما هي بقراءة ولكنها من تصحيفات حماد في القرآن، فقد ذكر أبو أحمد العسكري[٧]، وحمزة بن الحسن الأصفهاني[٨]، أن حمادًا الراوية قرأ يومًا: (والغاديات صبحًا) وأن بشارًا الأعمى سعى به إلى عقبة بن سلم، أمير البصرة، أنه يروي جُلَّ أشعار العرب ولا يحسن من القرآن غير أم الكتاب، فامتحنه عقبة بتكليفه القراءة في المصحف، فصحَّفَ فيه عدة تصحيفات، وقد ذكر العسكري في كتابه (شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف) أن الكوفيين يروون أن حمادًا الراوية كان حَفِظَ القرآن من المصحف فكان يصحف نيِّفًا وثلاثين حرفًا[٩].

وأكتفي هنا بعرض وجهة نظر جولدتسيهر في هذه القضية، وسوف أعود لمناقشتها في المبحث الأخير من هذا الفصل، إن شاء الله.

---

(١) المصدر نفسه ص ١٣–١٤.

(٢) أبو الخير محمد، ابن الجزري: **النشر**، ٢/ ٢٦٩–٢٧٠.

(٣) المصدر نفسه، ٢/ ٢٥١.

(٤) المصدر نفسه، ٢/ ٢٥٤.

(٥) ينظر: عبد الفتاح القاضي: **القراءات في نظر المستشرقين والملحدين**، دار مصر للطباعة، ١٤٠٢هـ، ص ٩٨ و٩٩ و١٠١ و١٠٤.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٠٧ و١٠٩.

(٧) أبو أحمد الحسن، العسكري: **شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف**، مصر، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٦٣، ص ١٢.

(٨) حمزة بن الحسن، الأصفهاني: **التنبيه على حدوث التصحيف**، بيروت، دار صادر، ١٩٩٢، ص ٥–٦.

(٩) ينظر: أبو أحمد الحسن، العسكري: **شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف**، ص ١٢.

المطلب الثالث: نظرية نشأة القراءات عند المستشرقين بعد جولدتسيهر

ردد عدد من المستشرقين تلك الفكرة، بعد جولدتسيهر[١]، وهم ما بين مؤيد لها، ومقلل من شأنها في ظهور القراءات، مثل قول المستشرق الألماني أوتو برتزل في مقدمة تحقيق كتاب التيسير في القراءات السبع للداني، الذي صدرت طبعته الأولى في إستانبول سنة ١٩٣٠م: "والذي حملنا على اتباع الرسم القديم أنه هو الذي أدى إلى اختلاف طائفة من القراء، لأن الكلمة المكتوبة بالرسم القديم ربما احتملت قراءتين أو أكثر"[٢].

ومثل ذلك قول المستشرق الأسترالي آرثر جفري (ت١٩٥٩م) في مقدمة تحقيق كتاب المصاحف لابن أبي داود الذي صدرت طبعته الأولى في القاهرة سنة ١٩٣٦م، وهو يتحدث عن المصاحف العثمانية: "كانت هذه المصاحف كلها خالية من النقط والشكل، فكان على القارئ نفسه أن ينقط ويشكل هذا النص على مقتضى معاني الآيات، ومثال ذلك (بعلمه)، كان الواحد يقرأها (يُعَلِّمُهُ)، والآخر (نُعَلِّمُهُ) أو (تُعْلِمُهُ) أو (بِعِلْمِهِ) إلخ، على حسب تأويله للآية، فكان حينئذ لكل قارئ اختيار في الحروف، وكذلك اختيار في الشكل أيضًا[٣]".

ويبدو من كلام برجشتراسر في الجزء الثالث من كتاب (تاريخ القرآن) الذي صدر سنة ١٩٣٧م بعد وفاته، أنه لا يوافق جولدتسيهر في قوله: إن الرسم هو السبب الرئيسي لنشأة القراءات، فقد قال: "لم يحدث في القراءات السبع إلا استفادة محدودة من الحرية الكبيرة التي أتاحها غموض الحرف الكوفي الذي كان سببه نقص نقط الحروف، وأكثر ندرة من ذلك هو الاختلاف عن الرسم، أي الحروف بدون نقط"[٤].

وجاء كلام برجشتراسر هذا بعد دراسة تحليلية لوجوه القراءات القرآنية، مبتدئًا بالظواهر الصوتية الخاصة بما يسمى بالأصول، مثل: الإدغام، والهمز، والمد، والإمالة، ونحوها[٥]، ثم تحدَّث عن وجوه اختلاف القراء السبعة في فرش الحروف، وقال بأن تلك الاختلافات تعبر عن ظواهر لغوية تتعلق باختلاف حالات الإعراب، وأزمنة الأفعال، وبنائها للمعلوم أو المجهول، وأبنية الأفعال المجردة، أو المضعفة، أو المزيدة بهمزة التعدية، أو ألف المفاعلة، واختلاف حركة عين الفعل المضارع، وأبنية المصادر، وأوزان جموع التكسير، ونحو ذلك، مما لا علاقة له بالنقط والشكل.

---

(١) اعتمد كاتب مادة (القرآن) في الموسوعة البريطانية على كلام جولدتسيهر في الحديث عن القراءات القرآنية (ينظر: فضل حسن عباس: **قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية**، ص ٢٢٣).

(٢) مقدمة تحقيق كتاب **التيسير**، ص ي.

(٣) مقدمة تحقيق كتاب **المصاحف**، ص ٧.

(٤) تيودور، نولدكه: **تاريخ القرآن**، نيويورك، دار نشر جورج ألز، ٢٠٠٠، ص ٦٣١.

(٥) ينظر: تيودور، نولدكه: **تاريخ القرآن**، ص ٦٢٤-٦٢٨.

وبعد أن فرغ برجشتراسر من ذكر وجوه اختلاف القراءات، وما تمثله من ظواهر لغوية، ذَكَرَ النتيجة التي تقدَّمت، والتي تؤكد أن تجرد خط المصحف لم يكن السبب الرئيسي لنشأة القراءات القرآنية، وهو ما ينقض نظرية جولدتسيهر من أساسها، على يد واحد من جيل تلامذته، ذي معرفة تامة بالقراءات القرآنية، واللغة العربية.

ولم تتوقف الإشارة إلى تلك النظرية في كتابات المستشرقين وأحاديثهم عن القراءات القرآنية، وإذا كانت أعمالهم في القرون الأخيرة لم تشتهر باللغة العربية فإن هناك إشارات تؤكد استمرارهم بتبني الفكرة والاعتماد عليها عند الحديث عن أصل القراءات القرآنية[1].

وآخر من صرح بتلك النظرية منهم المستشرق فرانسوا ديرويش أستاذ كرسي (تاريخ القرآن) في الكولج دو فرانس في باريس، الذي تأسس سنة ٢٠١٥م، في محاضراته التي ابتدأ بإلقائها في أبريل (نيسان) ٢٠١٥م، وقد ترجم خلاصتها الدكتور عبد الرزاق إسماعيل هرماس في ملتقى أهل التفسير في (ملتقى الانتصار للقرآن)[2].

قال الدكتور ديروش في المحاضرة الأولى بتاريخ ٢/ ٤/ ٢٠١٥م، وهو يتحدث عن مصاحف القرن السابع الميلادي (الأول الهجري):

١. إن المصاحف في القرن السابع الميلادي (الأول للهجرة) كتبت بطريقة قاصرة وبدون طريقة موحدة في الإملاء.

٢. كما اختلفت كتابتها باختلاف النساخ.

٣. هذا إضافة إلى عدم ضبط حروف العلة فيها، ونتج عن ذلك الاختلاف بين القرآن المتلو والقرآن المكتوب، فكان ذلك سببًا لظهور اختلاف القراءات القرآنية.

وأعاد الإشارة إلى تلك النظرية في المحاضرة الرابعة التي ألقاها بتاريخ ١٩ مايو ٢٠١٥م، وادعى فيها أن اختلاف القراءات ناتج عن أخطاء ارتكبها نُسَّاخٌ غير مؤهلين، بزعمه.

وقد لا يكون ديروش آخر من يردد هذه النظرية من المستشرقين، وليس ثم جديد عند المتأخرين منهم على ما ذكره المتقدمون حولها، ولا يقال لهم إلا ما قيل للمتقدمين منهم.

(١) وقفتُ على إشارات غير صريحة في كتاب (القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره) لبلاشير إلى أثر الخط في نشأة القراءات، من مثل قوله (ص٣٣): "إن النص المكتوب يرشد القارئ، ويجنب قلب الألفاظ والإغفال واللبس، ولكنه غير كاف لجعل نطق القارئ كاملًا". وقوله (ص١٠٧): "كان هذا الخط بمظهره الناقص يثير ويحدث الغموض في النص، فكان النص لهذا السبب مدعاة لفطنة القراء".

(٢) وهذا رابط الموقع: https://vb.tafsir.net/tafsir45327/#.WktowLcjTIU

المبحث الثالث

وجهة نظر المصادر الإسلامية في أصل القراءات القرآنية

قد يطول الحديث عن أصل القراءات القرآنية إذا تتبعنا كل تفاصيل الموضوع في المصادر الإسلامية، بما لا يتسع له البحث، ومن ثم فإني سوف أُلَخِّصُ وجهة النظر التي تعرضها تلك المصادر فيما يتعلق بأصل القراءات القرآنية، لنوازن بينها وبين النظرية الاستشراقية حول أصل القراءات، في خمس مطالب مختصرة، هي:

المطلب الأول: نزول القرآن بلغة قريش

تؤكد أقوال عدد من الصحابة ﷺ على أن القرآن نزل بلغة قريش، مثل رسالة عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن مسعود، بأَنْ يقرئ القرآن بلغة قريش[(١)]، وقول عثمان للصحابة الذي نسخوا المصاحف بأن يكتبوه بلغة قريش[(٢)]، وهناك شواهد لغوية وتاريخية أخرى تؤكد هذه المقولة[(٣)].

إن القول بنزول القرآن الكريم بلغة قريش يتوافق مع شواهد التأريخ وطبيعة اللغات البشرية، والعقل يقتضي أن تكون لغة أهل مكة ذات خصائص لغوية متجانسة، وأن لغة النبي ﷺ كانت متطابقة مع تلك اللغة، وأن معنى نزول القرآن بلغة قريش أن رسول الله ﷺ كان يتلو القرآن ويُبَلِّغُهُ على نَحْوٍ يطابق نطق العربية السائد في مكة، وكان أهل مكة يسمعون منه القرآن، ولا يستشكلون ذلك النطق، كما أنهم لا يصعب عليهم تقليده.

المطلب الثاني: نشأة القراءات في ظل رخصة الأحرف السبعة

كان الإسلام خطابًا للبشرية كلها، ودعوة للناس كافة، وكان أول من خُوطِبَ بها العرب في الجزيرة، ولم تكن لغاتهم واحدة، ويمكن للدارس أن يُقَسِّمَ تاريخ قراءة القرآن في عصر النبوة على فترتين: المكية والمدنية، وذلك بالاستناد إلى التنوع اللغوي للمخاطبين وعدمه، ففي الفترة المكية كان هناك تجانس لغوي بشكل عام بين المؤمنين الداخلين في الدين، فمعظمهم من أهل مكة، وسُكَّانُ مكة هم من قبيلة قريش، فلم يكن يصعب عليهم تلاوة القرآن بالنطق الذي يتلقون به القرآن من النبي ﷺ.

وفي الفترة المدنية حدث تغيير من ناحيتين: الأولى: دخول أفراد من قبائل عربية شتى في الإسلام، من بيئات لغوية مختلفة، والثانية: ازدياد أعداد الداخلين في الدين، خاصة بعد فتح مكة، حين تقاطرت وفود القبائل على المدينة من أقطار الجزيرة العربية، وقد اعترضتْ بعضَ هؤلاء صعوباتٌ في تعلمهم قراءة القرآن بسبب الاختلاف اللغوي، أو بسبب عوامل أخرى كالأمية، فقد أخرج الترمذي عن أُبي بن كعب، قال: "لَقِيَ رسول الله ﷺ جبريل، فقال: يا جبريل إني

(١) ينظر: عمر، ابن شبة: **تاريخ المدينة المنورة** ٢/ ٧١١، و٣/ ١٠١٠.

(٢) ينظر: **صحيح البخاري** ٤/ ١٨٠ (رقم الحديث ٣٥٠٦)، وينظر: ٦/ ١٨٢-١٨٣.

(٣) تناولت هذه القضية بالتفصيل في بحثي الموسوم (تكوُّن العربية الفصحى) المنشور في **مجلة مجمع اللغة العربية الأردني**، العدد ٤٨، السنة ١٩٩٥م، وأعدت نشره في كتاب **أبحاث في العربية الفصحى**، دار عمار، عمان ٢٠٠٥م، ص ٥٣-١١٧.

بُعِثْتُ إلى أُمَّةٍ أُمِّيِّينَ: فيهم العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتابًا قط، قال: يا محمد، إن القرآن أُنْزِلَ على سبعة أحرف"[1].

ولم يَدَعِ النبيُّ ﷺ تلك العوائق تحول دون تَعَلُّم أصحابهِ القرآنَ الكريم، ولم يحملهم على تعلم نطق قريش إذا عجزوا عن تحقيقه بكل خصائصه، ولكنه أقرأ كل قوم بلَغتهم، وعبَّر عن تلك الرخصة في القراءة بقوله ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه"، وهو حديث صحيح مشهور في كتب السُّنَّةِ.

قال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ= ٨٨٩م): "فكان من تيسيره [عز وجلَّ]: أَنْ أَمَرَهُ بأَنَ يُقْرِئَ كل قوم بلغتهم، وما جرت عليه عاداتهم... ولو أن كل فريق من هؤلاء أُمِرَ أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلًا وناشئًا وكهلًا، لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنَّفْسِ طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل متسعًا في اللغات، ومتصرفًا في الحركات"[2].

والراجح أن الرخصة في القراءة كانت بعد الهجرة، قال ابن حجر: "فقد ثَبَتَ أنَّ ورود التخفيف بذلك كان بعد الهجرة"[3]. وهذا أمر يقوِّي مذهب من يقول إن الرخصة كانت بسبب اختلاف اللغات، لأن أكثر من أسلم بعد الهجرة كان من القبائل العربية من غير قبيلة قريش التي نزل القرآن الكريم بلسانها.

وقد تحدَّث علماء القرآن والحديث عن معنى الأحرف السبعة، وتعددت فيه الأقوال، إلا أنها تدور حول الرخصة في القراءة، ويكفي أن أشير هنا إلى النتيجة العملية لتلك الرخصة، وهي ظهور القراءات القرآنية التي قرأها الصحابة ﷺ.

وتلزم الإشارة هنا إلى المنهج النبوي في تعليم قراءة القرآن، ويتلخص في قوله ﷺ: (اقرؤوا كما عُلِّمْتُمْ)[4]، وتَرْجَمُه الصحابة ﷺ ومن جاء بعدهم إلى منهج عملي التزموا به في تعليم القراءة، فكانوا يرددون قول زيد بن ثابت:(القراءة سُنَّةٌ)[5]، وأكتفي بنقل ما قاله أبو عمرو بن العلاء البصري حين سأله أبو زيد الأنصاري: أَكُلُّ ما قرأتَ به سمعته؟ فقال: لو لم أَسْمَعْهُ من الثقات لم أقرأ به؛ لأنَّ القراءة سُنَّةٌ[6].

المطلب الثالث: نسخ المصاحف العثمانية، وأثره في القراءات

لم تكن قراءة الصحابة في زمن النبي ﷺ موحدة، فقد كان بينهم تباين في طريقة الأداء، يرجع إلى ما رَخَّصَ لهم به رسول الله ﷺ بقوله: (إنَّ هذا القرآنَ أُنْزِلَ على سبعة أحرفٍ، فاقْرَؤُوا ما تَيَسَّرَ منه)، واستمر الصحابة في عصر الخلافة الراشدة يقرؤون القرآن على نحو ما كانوا يقرؤونه في زمن النبي ﷺ، وأخذ عنهم التابعون ذلك.

---

(١) **سنن الترمذي** ٥/ ٤٤، رقم الحديث (٢٩٤٤).

(٢) عبد الله بن مسلم، ابن قتيبة: **تأويل مشكل القرآن**، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٣٩-٤٠.

(٣) أحمد بن علي بن حجر، العسقلاني: **فتح الباري**، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩، ٩/ ٢٨.

(٤) ينظر: أبو عبيد: **فضائل القرآن**، ص ٣٤٦ و٣٦١، **ومسند الإمام أحمد** ٢/ ٢٠٠ (رقم الحديث ٨٣٢)، وابن مجاهد: **السبعة**، مصر، دار المعارف، ١٤٠٠هـ، ص ٤٧.

(٥) ينظر: أبو عبيد: **فضائل القرآن**، ص ٣٦١، وابن مجاهد: **كتاب السبعة**، ص ٤٩-٥٠، وسليمان بن أحمد، الطبراني: **المعجم الكبير**، القاهرة، دار ابن تيمية، ٥/ ١٣٣.

(٦) ينظر: الداني: **جامع البيان في القراءات السبع**، جامعة الشارقة،٢٠٠٧، ١/ ١٤٨.

وبـــرز الاختلاف في القراءة، وكَثُرَ الجدل حولها بين جيل التابعين، والصحابة لا يزالون بين أظهرهم، مما حمل الخليفةَ الثالث عثمان بن عفان على أن يأمر بنســخ المصاحف من الصحف، وتفريقها في الأمصار، وتحريق ما ســواها، وقد قال عثمان للذين أمرهم بنسخ المصاحف: (إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلســانهم)، وذلك لضمان كتابته باللفظ المنزل على رسول الله ﷺ، دون ما جاءت به رخصة الأحرف السبعة من وجوه النطق المختلفة.

وكان نَسْخُ المصاحف في خلافة عثمان بن عفان ﷺ، وتوزيعها على الأمصار قد أسس لمرحلة جديدة في قراءة القرآن الكريم، تعتمد على ما رُسِـــمَ في المصاحف العثمانية، قال ابن قتيبـــة (ت ٢٧٦هـ= ٨٨٩م): "كل ما كان موافقًا لمصحفنا غيرَ خارجٍ مِن رَسْمِ كِتَابِهِ جاز لنا أن نقرأ به، وليس لنا ذلك في ما خالفه"[(١)]. وقال مكي: "وسَقَطَ العمل بالقراءات التي تُخَالِفُ خطَ المصحفَ، فكأنها منسوخة بالإجماع على خط المصحف"[(٢)].

المطلب الرابع: الاختيار في القراءة وآثاره

كانت مدارس القراءة قد بدأت تتشــكل حول المصاحف التي أرســلها الخليفة عثمان بن عفان ﷺ إلى كل مصر من الأمصار الخمســة، فتلقى التابعون القراءة عن علماء القراءة من الصحابة، وأدَّوْهَــا إلى تابعي التابعين، وهكذا تناقلت أجيال الأمة قراءات القرآن عبر العصــور، لكن رواية القراءات في القرن الأول والثاني خضعت لظاهرة جديدة تركت آثارها على القراءات، وهي "ظاهرة الاختيار" في القراءة.

وكلمة (الاختيار) تدل على المفاضلة بين أمرين أو أكثر، واصطفاء أحدهما، وصارت للكلمة في علم القراءات دلالة أكثــر تحديدًا، وهي التعبير عن قيام قارئ للقرآن باعتمادِ وَجْهٍ من وجوه القراءة المروية، في كل حرف من حروف القرآن المختلف في قراءتهــا، في تعليمه القرآن وتلاوته له، فيقال: اختيار فلان، أي قراءتــه التي اختارها. قال مكي: "وهؤلاء الذين اختاروا إنما قرؤوا لجماعة، وبروايات، فاختار كل واحد مما قرأ وروى قراءة تُنْسَبُ إليه بلفظ الاختيار"[(٣)].

وكانت ظاهرة الاختيار في القراءة قد تركت آثارًا عميقة في تشكيل القراءات بالشكل الذي استقرت عليه منذ عصر ابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ= ٩٣٦م)، ومن أهمها ما يأتي:

(١) امتزاج قراءات الأمصار:

كانــت قراءات الأمصار متميزة بعضها عن بعض، فكانت تغلب على أهــل كل مصر قراءة من قراءات القراء المشهورين من الصحابة، فكانت في المدينة قراءة زيد بن ثابت، وفي الكوفة قراءة عبد الله بن مسعود، وفي البصرة قراءة أبي موســى الأشعري، وفي الشام قراءة أبي الدرداء، وقد تداخلت هذه القراءات في عصر التابعين وتابعي التابعين، واختفت بأسمائها المعروفة لتظهر في أسماء جديدة هي اختيارات القراء من التابعين وتابعيهم.

(١) عبد الله بن مسلم، ابن قتيبة: **تأويل مشكل القرآن**، ص ٤٢.

(٢) مكي بن أبي طالب، القيسي: **الإبانة**، القاهرة، دار نهضة مصر، ١٩٦٠، ص ٤٢.

(٣) نفسه، ص ٤٩، وينظر: الداني: **جامع البيان** ١/ ١٢٩-١٣٠، وابن الجزري: **النشر** ١/ ٥٢.

ولم يكن أثر الاختيار يقف عند حد اختفاء اسم: زيد، وعبد الله، وأُبَيٍّ، وغيرهم من الصحابة، وظهور اسم نافع وعاصم وحمزة وغيرهم، وإنما يتجاوز ذلك إلى انتقال وجوه القراءات من قراءة إلى أخرى، بما لا يقع تحت الحصر، ولكن يمكن أن يكون ذلك واضحًا من خلال ظاهرتي الهمز والتسهيل، والفتح والإمالة، فالهمز والإمالة ظاهرتان تغلبان على قراءة أهل العراق الأُولَى، والتسهيل والفتح يغلبان على قراءة أهل المدينة القديمة، وأدَّت ظاهرة الاختيار إلى انتقال الهمز إلى قراءة أهل المدينة، وظاهرة الفتح إلى قراءة أهل العراق.

(٢) ازدياد عدد القراء والقراءات:

كان عدد القراء من الصحابة الذين تصدَّروا للإقراء واشتهرت قراءتهم لا يتجاوز العشرة، لكن عدد القراء أصحاب الاختيارات تضاعف في عصر التابعين وتابعي التابعين، وبلغوا العشرات، بسبب اتساع بلاد المسلمين، وازدياد الحاجة إلى التعليم، واستقر في عُرْفِهِم أنَّ مَن يتصدى للإقراء له أنْ يختار قراءة يُعَلِّمُهَا مَن يقرأ عليه، واكتفى بعضهم برواية قراءة شيخه، وكانت النتيجة ظهور عشرات الاختيارات في القراءات، في القرون الثلاثة الأُولَى.

وانعكس ذلك على كتب القراءات القديمة، فكان كتاب أبي عبيد القاسم بن سلَّام (ت ٢٢٤هـ= ٨٣٩م) يضم خمسًا وعشرين قراءة، وكان كتاب إسماعيل القاضي (ت ٢٨٢هـ= ٨٩٥م) فيه عشرون قراءة، وجاء بعده محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ= ٩٢٢م) وجمع في كتابه في القراءات نيفًا وعشرين قراءة[١]، ولا تضم هذه الكتب جميع أصحاب الاختيارات من تلك الفترة.

وأدرك ابن مجاهد البغدادي (ت ٣٢٤هـ= ٩٣٦م) ما أدت إليه ظاهرة الاختيار من كثرة القراءات، فامتنع عن اختيار قراءة تُنْسَبُ إليه، فقد نقل تلميذه أبو طاهر بن أبي هاشم أن رجلًا سأل ابن مجاهد: "لِمَ لا يختار الشيخ لنفسه حرفًا يُحْمَلُ عنه؟ فقال: نحن أحوج إلى أن نُعْمِلَ أنفسنا في حفظ ما مضى عليه أئمتنا، أحوَج منا إلى اختيار حرف يَقْرَأُ به مَن بَعْدَنَا"[٢].

(٣) ظهور مصطلح القراءات السبع:

انحسرت ظاهرة الاختيار بعد رفض ابن مجاهد اختيار قراءة تسمى باسمه، لكن أثر الظاهرة كان ماثلًا أمام نظر ابن مجاهد، وما يمثله مِن عِبْءٍ على المتعلمين للقراءات، فأَقْدَمَ على دراسة الاختيارات وصَنَّفَهَا إلى صنفين: الاختيارات الصحيحة المشهورة، والاختيارات الشاذة المهجورة، وأَلَّفَ كتابين: الأول (كتاب السبعة) الذي ضمَّنه اختيارات القراء السبعة المشهورين، وهم: نافع، وابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن عامر. والثاني: كتاب (شواذ السبعة) الذي ضمَّنه بقية الاختيارات التي لم تشتهر شهرة السبعة[٣].

(١) ينظر: ابن الجزري: **النشر** ١/ ٣٤.

(٢) محمد بن أحمد، الذهبي: **معرفة القراء**، إستانبول، مركز البحوث الإسلامية، ١٩٩٦، ١/ ٢١٧.

(٣) ينظر: ابن جني: **المحتسب**، القاهرة، ١٩٦٦، ١/ ٣٢ و٣٥.

ووصف ابنُ الجزري ابنَ مجاهد بأنه (أَوَّلُ مَنْ سَبَّعَ السبعة) [١]، ولم يكن يُعْرَفُ قبل ابن مجاهد مصطلح القراء السبعة، ولا القراءات السبع، لكنه اشتهر بعد ابن مجاهد، حتى عدَّ بعضهم ما عدا السبع شاذًا[٢]، وكثرت المؤلفات في السبع، ثم أُضِيفَتْ إليها ثلاث قراءات هي قراءة: أبي جعفر، ويعقوب، وخلف. فصارت القراءات المتواترة عشرًا، وما عداها شاذ.

المطلب الخامس: أركان القراءة الصحيحة

احتاج علماء القراءة إلى ضوابط محددة في تمييز القراءة الصحيحة المقبولة من الشاذة المتروكة، فليس كل قراءة مروية عن الصحابة تجوز القراءة بها، وليس كل قراءة وافقت المصحف تصح القراءة بها، وكان أبو عبيد القاسم بن سلَّام (ت٢٢٤هـ= ٨٣٩م) قد ذكر أركان القراءة الصحيحة، وطَبَّقَهَا في كتابه في القراءات الذي يُعَدُّ أول كتاب جامع لها[٣]، كما في النص الذي نقله عنه أبو بكر بن الأنباري، وهو يتحدث عن هاء الوقف أو السكت في القرآن الكريم، وكيفية الوقف عليها، فقال: "وقال أبو عبيد القاسم بن سلام الأَسْدِيُّ: الاختيار عندي في هذا الباب كله الوقوف عليها بالهاء بالتعمد لذلك، لأنها إذا أُدْرِجَتْ في القراءة مع إثبات الهاء كان خلاف الكِتَاب، فإذا صار قارئها إلى السكت عندها على ثبوت الهاءات اجتمعت له المعاني الثلاثة، وهي:

- أن يكون مصيبًا في العربية.
- وموافقًا للخط.
- وغير خارج من قراءة القرَّاء"[٤].

وكان محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ= ٩٢٢م) قد ألمح كثيرًا إلى أركان القراءة الصحيحة في تفسيره، وقد صرَّح بها في كتابه (الجامع في القراءات)، الذي أشار إليه في مقدمة تفسيره، كما نقل ذلك عنه المِنْتُورِيُّ في شرح الدرر اللوامع حيث قال: "وقال الطبري في الجامع: ثم كُلُّ مَن اختار حرفًا من المقبولين من الأئمة، المشهورين بالسُّنَّةِ والاقتداء بِمَن مضى من علماء الشريعة، راعَى في اختياره:

الروايةَ أوَّلًا.

ثمَّ موافقةَ المصحف الإمام ثانيًا.

ثم العربيةَ ثالثًا.

فَمَن لم يُرَاعِ الأشياء الثلاثة في اختياره لم يُقْبَلِ اختيارُهُ، ولم يتداوَلْهُ أَهْلُ السُّنَّةِ والجماعة"[٥].

---

(١) أبو الخير محمد، ابن الجزري: **غاية النهاية**، المطبعة الرحمانية، ١٣٥١هـ، ١/ ١٣٩.

(٢) ينظر: ابن النديم: **الفهرست**، طهران، ١٩٧١، ص ٣٣.

(٣) ذهب بعض المعاصرين إلى أن ابن مجاهد هو الذي وضع أركان القراءة الصحيحة (ينظر: شوقي ضيف: مقدمته لكتاب السبعة ص ١٧)، ونسب برجشتراسر في تاريخ القرآن (ص ٥٨٧) إلى مكي بن أبي طالب صياغة ما سماه بالمعايير الثلاثة، والصواب ما أثبتناه.

(٤) أبو بكر محمد، ابن الأنباري: **إيضاح الوقف والابتداء**، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٧١، ١/ ٣١١.

(٥) محمد بن عبد الملك، المنتوري: **شرح الدرر اللوامع**، ط١، ٢٠٠١، ص ٨٦٤.

واشتهرت أركان القراءة الصحيحة هذه، واستند إليها علماء القراءة في تمييز القراءة الصحيحة من الشاذة، قال مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ= ١٠٤٥م) وهو يتحدث عن أقسام القراءات: "قسم يُقْرَأُ به اليوم، وذلك ما اجتمع فيه ثلاث خِلال، وهي: أن يُنْقَلَ عن الثقات إلى النبي ﷺ، ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن شائعًا، ويكون موافقًا لخط المصحف"(١).

ولعل في هذا العرض الموجز ما يوضح أصل القراءات القرآنية الذي نشأت عنه، وهو التلقي عن الصحابة، الذين تعلموا القرآن وقراءاته عن رسول الله ﷺ، وأخذها عنهم التابعون وتابعوهم، ولم يخترعها القراء السبعة ولا غيرهم من القراء، ولم تكن ناتجة عن عجز القراء كيف يقرؤون في المصحف، بسبب تجرد الخط من العلامات، كما ذهب إلى ذلك المستشرقون، وآمل أن تتضح الحقيقة أكثر من خلال الموازنة بين المذهبين في المبحث الآتي.

المبحث الرابع

الموازنة بين المذهبين والترجيح بينهما

اتضحت من خلال العرض السابق وجهتا النظر في أصل القراءات القرآنية، وجهة النظر الاستشراقية التي تقول بأن السبب الرئيسي لنشأة القراءات القرآنية هو تجرد خط المصاحف الأُولَى من النقط والشكل، فكان على القارئ أن يقوم بتنقيط الحروف وتشكيل الحركات بما يتناسب وسياق الكلمات، ومن ثم اختلف القراء في قراءة كثير من الكلمات.

ووجهة نظر المصادر الإسلامية التي تقول بأن القراءات القرآنية جاءت نتيجة لرخصة الأحرف السبعة التي عبَّر عنها الحديث النبوي الشريف: (إنَّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه)، فاختلفت قراءات الصحابة تبعًا لذلك، بحسب اختلاف لغاتهم، وأخذ التابعون عنهم تلك القراءات، وبعدَ نَسْخِ المصاحف العثمانية قرأ أهل الأمصار بما يحتمله الخط، وتُرِكَتِ القراءة بما يخالفه، وكَثُرَتِ اختيارات القراء في القرن الثاني والثالث، وكانت تلك الاختيارات تخضع لثلاثة شروط: أن تكون القراءة منقولة عن الصحابة، وأن يحتملها خط المصحف، وأن تكون قوية الوجه في العربية. واقتصر ابن مجاهد في أول القرن الرابع على سبع قراءات، وأُضِيفَتْ إليها في فتراتٍ لاحقةٍ ثلاثٌ أخرى، فانحصرت القراءات الصحيحة بعشر قراءات، وما عداها صار شاذًا، يُرْوَى في مسائل التفسير واللغة، ولا يُقْرَأُ به.

المطلب الأول: الخلفية التاريخية للنظرية الاستشراقية

إن وجهة النظر الاستشراقية في تفسير أحداث التاريخ الإسلامي تقوم على أساس مادي مجرد من أَيِّ بُعْدٍ روحي أو غيبي، وجاءت نظريتهم في تفسير نشأة القراءات القرآنية متأثرة على ما يبدو بتلك الخلفية التاريخية، فهي عندهم تشبه قراءة النصوص القديمة، التي اختلف المتخصصون في قراءتها بسبب تجردها من النقط والشكل، ونحن حين نناقش هذه النظرية نحاول أن نستخدم نفس الأدوات التي استخدموها، ولكن برؤية تستند إلى الحقائق التي شكلت ذلك التاريخ.

ويمكن أن نُوَضِّحَ وجهة النظر الاستشراقية من خلال النظر في نقش شاهد القبر المؤرخ بسنة ٣١هـ المحفوظ في

(١) مكي: **الإبانة**، ص ٥١، وينظر: ابن الجزري: **النشر**، ١/ ٩.

متحف الفن الإســـلامي في القاهرة، وسبقت الإشارةُ إليه وذِكْرُ المصادر التي تحدَّثت عنه في المبحث الأول، والقصد هنا الوقوف عند بعض الكلمات التي اخْتُلِفَ في قراءتها فيه[1]، وهذه صورة النقش على الصخر، ومستخلصة منه:

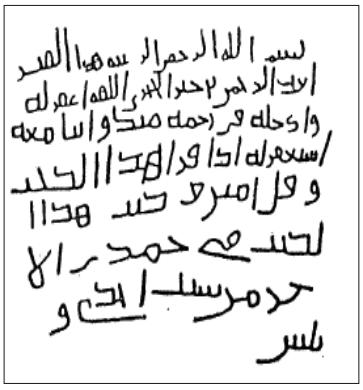

وقد اخْتُلِفَ في قراءة اسم صاحب القبر: ( )، هل هو: عبد الرحمن بن خير الحجازي، أو: عبد الرحمن بن جبر الحجري؟ ورســـم الحروف في النقش يحتمل القراءتين، لعدم وجود نقاط الإعجام فيه، ولاحتمال حذف الألف من كلمة (الحجازي) كما حُذفت من كلمة (الرحمان).

وكذلك اخْتُلِفَ في قراءة: ( )، هل هي: وآتنا معه، أو: وإننا معه، أو: وإيانا معه؟

والسبب في هذا الاختلاف في قراءة النص يرجع إلى أمرين:

الأول: انقطاع الصلة بيننا وبين كاتبه، فلا ندري ماذا أراد أن يكتب.

والثاني: تجرد الخط من نقاط الإعجام التي تميز بين الحروف المتشابهة في الصورة، ومن علامات الحركات.

وليس الأمر كذلك بالنســـبة للمصحف الذي كُتِبَ في الفترة التي يرجع إليها هذا النقش المؤرخ بســـنة ٣١ هـ، فلم تنقطـــع الصلة بيننا وبين كاتب المصحف، وقد عرفنا ماذا أراد أن يكتب بالرواية المتصلة، وكيف كان يقرأ، ولو نظرنا في سورة الفاتحة في مصحف قديم مجرد، ووقفنا على القراءات في بعض ألفاظها لتبين لنا عدم صحة النظرية الاستشراقية في نشأة القراءات، وهذه سورة الفاتحة مكتوبة بالخط الكوفي القديم المجرد من العلامات:

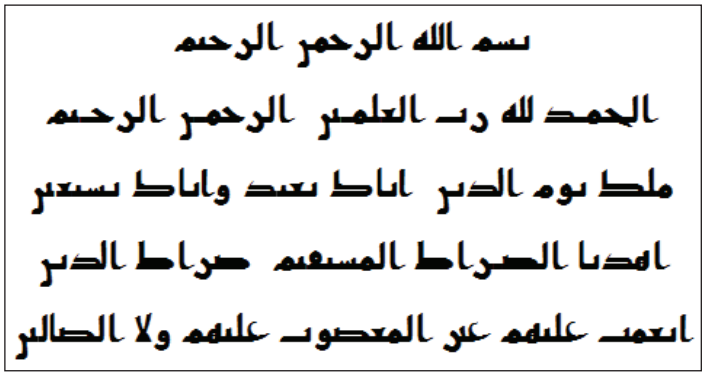

(١) ينظر: كتابي: **علم الكتابة العربية**، ص ٤٨-٤٩.

وقد اختلف القراء السبعة في ثلاث كلمات في السورة، هي:

١. مالك، وملك

٢. الصراط، السراط، الزراط

٣. عَلَيهِمْ، عَلَيْهُمْ، عَلَيْهُم، عَلَيْهِمُو

ولو كان الرسم سببًا لنشأة القراءات لما اختلف القراء في (مالك وملك)، لأن الرسم لا يحتمل إلا قراءة واحدة، وكذلك (الصراط، والسراط، والزراط) لا يحتمل الرسم إلا قراءة واحدة، ويرجع اختلاف القراء في حركة الهاء في (عليهم) إلى اختلاف العرب في حركة هاء الضمير، وليس بسبب تجرد الرسم من الحركات.

ثم إن القراء لم يتعثروا في قراءة كلمة (الرحمن) ولا كلمة (العلمين) بسبب عدم وجود الألف في الرسم، ولم يقرأ أحد منهم الكلمتين بحسب رسمها، ولم يختلفوا في قراءة الكلمات الأخرى التي لم توضع النقاط أو الحركات على حروفها في السورة، والسبب في ذلك كله أن المصحف لم يكن نقشًا عُثِرَ عليه، واحتار الناس في قراءته، وإنما كان القرآن يُتْلَى بهذه القراءات قبل أن تُكْتَبَ المصاحف، وحين كُتِبَتِ المصاحف قرأ فيها المسلمون بما كانوا يحفظون ويقرؤون.

فالسبب في الاختلاف في قراءة النقوش هو انقطاع الصلة بين كاتب النقش وقارئه، ولم تنقطع الصلة بين كاتب المصحف وقارئه، فحين كُتِبَتِ المصاحف العثمانية وأُرْسِلَتْ إلى الأمصار أرسل الخليفة مع كل مصحف قارئًا يُعَلِّمُ الناس القراءة، وكان أهل الأمصار يقرؤون القرآن بما تلقوه عن معلميهم من الصحابة، حتى قبل وصول المصاحف العثمانية إليهم.

ومن ثَمَّ ليس صوابًا قول جولدتسيهر: "وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات إلى خصوصية الخط العربي، الذي يقدِّم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة، تبعًا لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط".

ولم يجد برجشتراسر قول أستاذه جولدتسيهر يستند إلى أساس علمي صحيح، ومن ثم حاول أن يعيد صياغته، فقال: "لم يحدث في القراءات السبع إلا استفادة محدودة من الحرية الكبيرة التي أتاحها غموض الحرف الكوفي الذي كان سببه نقص نقط الحروف، وأكثر ندرة من ذلك هو الاختلاف عن الرسم، أي الحروف بدون نقط".

ولا يعني ذلك أن برجشتراسر ينفي بالكلية أثر تجرد الخط من العلامات في وجود بعض القراءات، لكنه لا يجعله السبب الرئيسي لنشأتها، كما ذهب إلى ذلك جولدتسيهر.

المطلب الثاني: القراءات القرآنية تعكس اتجاهات لغوية

إن ما نجده من قراءات قرآنية تختلف في نقاط الإعجام، أو حركات الإعراب أو بنية الكلمات، لم يكن سبب نشأتها تجرد الخط، وإنما هو التلقي عن القراء الأوائل من الصحابة أولًا، وتعكس تلك القراءات اتجاهات لغوية كانت معروفة في ذلك الوقت، وأكتفي بمثال واحد يوضح ذلك، هو قراءات سورة المنافقون[1]:

(١) ينظر: الداني: **التيسير**، إستانبول، مطبعة الدولة، ١٩٣٠، ص ٢١١، وابن الجزري: **النشر** ٢/ ٣٨٧-٣٨٨.

١. ﴿خُشُبٌ﴾ [٤]: قرأ أبو عمرو والكسائي وقنبل عن ابن كثير (خُشْبٌ) بإسكان الشين، والباقون (خُشُبٌ) بضمها.

٢. ﴿لَوَّوْاْ﴾ [٥]: قرأ نافع (لَوَوْا) بتخفيف، والباقون (لَوَّوْا) بتشديدها.

٣. ﴿وَأَكُن﴾ [١٠]: قرأ أبو عمرو وحده (وأَكُونَ)، والباقون (وأَكُنْ).

٤. ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [١١]: قرأ أبو بكر عن عاصم (يعملون) بالياء، والباقون بالتاء.

إن بعض هذه القراءات تحتمل أن تكون بسبب تجرد الخط، فالكلمة الرابعة تتعلق بتنقيط الحروف، والأولى والثانية تتعلق بالتشكيل، وأما الثالثة ففيها زيادة حرف، وهي لا تحتمل أن تكون بسبب تجرد الخط من العلامات.

إن النظرية الاستشراقية تقول إن هذه القراءات ناشئة عن تجرد الخط من العلامات، بينما تقول وجهة نظر المصادر الإسلامية أن هذه القراءات قرأ بها الصحابة قبل كتابة المصاحف، في ظلال رخصة الأحرف السبعة.

وهذه القراءات تعكس اتجاهات لغوية معروفة في كلام العرب، كما وَضَّحَ علماء توجيه القراءات، وليس ثَمَّ مجال للظن بأنها ناتجة من عدم معرفة القارئ كيف يقرأ لتجرد الخط من العلامات:

قال ابن أبي مريم الشيرازي، وهو يتحدث عن (خُشُب): "والوجه أنَّ خُشُبًا وخُشْبًا كأُسُدٍ وأُسْدٍ، وطُنُبٍ وطُنْبٍ، فَفُعُلٌ بضمتين أَصْلٌ، وفُعْلٌ بضمِّ الفاءِ وتسكينِ العينِ مُخَفَّفٌ منه، وهو مقيسٌ مُطَّرِدٌ سواءٌ كان واحدًا أو جمعًا"[١]، وقال مكي: "والضم لغة أهل الحجاز"[٢].

وأما قراءة (لَوَوْا) بالتخفيف و(لَوَّوْا) بالتشديد، فإن مجيء فَعَلَ بالتخفيف بمعنى فَعَّلَ بالتشديد كثير في كلام العرب[٣]، وقال مكي: "وفي التشديد معنى التكثير، أي: لَوَّوْهَا مرة بعد مرة، وفي التخفيف معنى التقليل، ويصلح للتكثير أيضًا"[٤].

وأما قراءة (فأَكُونَ) بالنصب، و(فأكنْ) بالجزم فإنَّ مَن نَصَبَ عَطَفَهُ على لفظ (فأَصَّدَقَ)، ومَن جَزَمَ حمله على موضع (فأَصَّدَّقَ)، لأن موضعه الجزم، فالمعنى: إنْ تُؤَخِّرْنِي أَصَّدَقْ[٥].

وأما قوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فإن أكثر القراء قرؤوا (تعملون)، وقرأ أبو بكر شعبة عن عاصم (يعملون)، فهل قرأه بالياء لأنه لم يعرف كيف يقرأ، أو أخذ ذلك عن شيخه عاصم، عن زر بن حبيش وأبي عبد الرحمن السلمي، عن علي وزيد وابن مسعود من الصحابة؟

الجواب الراجح، بل الصحيح، أنه قرأ كذلك لأنه أخذه عن شيخه كذلك، وقد قال مكي: "حمله على لفظ الغيبة

(١) نصر بن علي، الشيرازي: **الموضح في وجوه القراءات وعللها**، جدة، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن، ١٩٩٣، ٣/ ١٢٧٠.

(٢) مكي بن أبي طالب، القيسي: **الكشف** ٢/ ٣٢٢.

(٣) ينظر: ابن جني: **المحتسب** ١/ ٢٣٨، و٢/ ٢١.

(٤) **الكشف** ٢/ ٣٢٢.

(٥) ينظر: أبو العباس أحمد بن عمار، المهدوي: **شرح الهداية**، الرياض، مكتبة الرشد، ص ٥٣٣.

التي قبله في قوله: (ولن يؤخر الله نفسًا)، والنفس بمعنى الجماعة، فلذلك قال: (بما يعملون)، وقرأ الباقون بالتاء جعلوه خطابًا شائعًا لكل الخلق"[1].

المطلب الثالث: شواهد أخرى على بطلان النظرية الاستشراقية

أحسب أن الأساس الذي انبنى عليه القول بأن سبب نشأة القراءات هو تجرد الخط قد بان ضعفه، وأنه تعليل شكلي بل سطحي لظاهرة عظيمة تتعلق بالقرآن الكريم الذي حرصت أجيال المسلمين من لدن عصر الصحابة إلى زماننا على الحفاظ على نصه مصونًا من الاجتهادات والظنون، ومع ذلك فلعل من المفيد تعزيز هذه النتيجة بأدلة أخرى، قطعًا لكل خاطرة قد تخطر على البال، فتشوش على تلك الحقيقة التاريخية الواضحة[2].

أولًا: كانت القراءات القرآنية موجودة ومعروفة في زمن النبي ﷺ قبل أن تُكْتَبَ المصاحف، وكانت قراءات الصحابة متعددة بفضل رخصة الأحرف السبعة، فلم يكن خط المصحف سببًا في وجود القراءات القرآنية أو اختلافها، ولكن الخط كان سببًا في حفظ الاختلاف الموجود أصلًا، لأن القراءة سُنَّةٌ متبعة[3]، وكان الخط حين عُدَّت موافقته شرطًا في قبول القراءة مقياسًا يمنع ما لا يدخل في نطاقه مما صَحَّ من الروايات، فالرسم لا يُنْشِئُ القراءة ولكنه يَحْكُمُ عليها[4].

ثانيًا: تتضمن القراءات القرآنية قبل نسخ المصاحف العثمانية وجوهًا متعددة من النطق، خالف كثير منها خط المصاحف، ولو كان الخط سببًا لنشأة القراءات لانحصرت القراءات فيما يحتمله الخط فقط، ولما وجدنا قراءات مخالفة للرسم أو خارجة عليه، وهي كثيرة، ومثال القراءات المخالفة للخط قراءة من قرأ في الفاتحة (مالك) بالألف، و(السراط) بالسين، و(عليهمو) بإلحاق الميم الواوَ، فمثل هذه القراءات لا يمكن أن تكون ناتجة عن الخط قطعًا، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك يطول ذكرها.

ثالثًا: لو كان الرسم هو السبب في نشأة القراءات لوجب قبول كل قراءة احتملها خط المصحف، فما دامت القراءات – بحسب زعمهم – اجتهاد القراء في قراءة المرسوم، فإنه لا فضل للواحدة منها على الأخرى، وفي قصة حمَّاد الراوية (ت ١٥٥هـ)[5] ما يدل على بطلان نظرية المستشرقين في أصل القراءات، فقد كان حماد مشغولًا برواية الشعر عن تعلم قراءة القرآن، فلما أراد أن يحفظ

---

(١) **الكشف** ٢/ ٣٢٣.

(٢) كانت كتابات جولدتسيهر عن أثر تجرد الخط في نشأة القراءات مدعاة لكتابة عدد من الرسائل والكتب في الرد على نظريته، منها:

١. كتاب: **رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم: دوافعها والرد عليها**، للدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، ط ٢، جدة، دار الشروق، ١٩٨٣م.

٢. **القراءات في نظر المستشرقين والملحدين**، للشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي، دار مصر للطباعة، ١٤٠٢هـ.

٣. **الرد على المستشرق اليهودي جولدتسيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية**، للدكتور محمد حسن حسن جبل، ط ٢، كلية القرآن الكريم بطنطا ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م.

(٣) ينظر: عبده الراجحي: **اللهجات العربية في القراءات القرآنية**، مصر، دار المعارف، ١٩٦٩، ص ٧١.

(٤) ينظر: عبد الصبور شاهين: **القراءات القرآنية**، دار القلم، ١٩٦٦، ص ٢١٠.

(٥) ينظر: الزركلي: **الأعلام**، بيروت، دار العلم، ١٩٨٠، ٢/ ٢٧١.

القرآن قَرَأَهُ في المصحف، فكان يُصَحِّفُ نَيِّفًا وثلاثين حرفًا، منها: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل ٦٨] قرأها: يغرسون، و﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ [التوبة ١١٤] قرأها: أَبَاه، و﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ [مريم ٧٤]: قرأها: وزِيًّا، وغيرها[١]، ذكرها الرواة وأثبتها المؤلفون في كتب التصحيف والتحريف، ولو كان الأمر كما ذهب إليه هؤلاء المستشرقون لكان حمَّاد أحد القراء المشهورين للقرآن.

ومثل ذلك قصة محمد بن الحسن بن يعقوب بن مِقْسَم العطار البغدادي (ت٣٥٤هـ) الذي عَمَدَ إلى حروف من القرآن فخالف الإجماع فيها وقرأها على وجوهٍ ذكر أنها تجوز في اللغة العربية، وشاع ذلك عنه عند أهل العلم فأنكروه، وارتفع الأمر إلى السلطان فأحضره واستتابه بحضرة القراء والفقهاء، فأذعن بالتوبة وكتب محضرًا بتوبته، وأثبت جماعةُ مَن حَضَرَ ذلك المجلس خطوطهم فيه بالشهادة عليه[٢].

فلو كانت القراءات ناتجة عن تجرد الخط لكان الأولى قبول قراءة حماد الرواية، الذي يروي جل أشعار العرب، وقراءة ابن مقسم الذي كان من كبار النحويين في بغداد، لكن القراءة سُنَّةٌ يأخذها الآخِرُ عن الأول، حتى تنتهي إلى أصحاب رسول الله ﷺ.

رابعًا: كان منهج تعليم القرآن الكريم منذ زمن النبي ﷺ وأصحابه يعتمد على التلقي الشفهي، والحفظ في الصدور، قال ابن الجزري: "إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على حفظ المصاحف والكتب"[٣]، ويُلَخِّصُ ذلك المنهج قول الصحابة والتابعين: "إنَّ القراءة سُنَّةٌ، يأخذها الآخِرُ عن الأول"[٤].

ومن الشواهد العملية على ذلك المنهج أن النبي ﷺ أرسل مصعب بن عمير من مكة إلى المدينة، ليعلم أهلها القرآن، قبل هجرته إليها، حين طلب أهلها منه ذلك[٥]، ولم يرسل إليهم مصحفًا، وأنَّ عمر بن الخطاب أرسل إلى والي الشام ثلاثة من كبار الحفاظ والقراء من الصحابة، وهم: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، حين طلب منه أن يعينه بمن يعلِّم أهل الشام القرآن[٦]، ولم يرسل مصاحف إليهم، وحين كتب عثمان المصاحف لم يكتف بإرسالها إلى الأمصار، وإنما أرسل مع كل مصحف بقارئ يُعَلِّمُ الناس القراءة في ذلك المصحف[٧].

---

(١) ينظر: العسكري: **شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف**، ص١٢، والعطار: **التمهيد**، عمان، دار عمار، ٢٠٠٠، ص ٢٥٢-٢٥٤.

(٢) ينظر: الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣، ٢/ ٦٠٨، وياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ٦/ ٢٥٠٣-٢٥٠٤، وابن الجزري: **غاية النهاية**، ٢/ ١٢٤.

(٣) ابن الجزري: **النشر**، ١/ ٦.

(٤) ينظر: ابن مجاهد: كتاب **السبعة**، ص٤٩-٥٥، وينظر: الداني: **جامع البيان**، ١/ ١٣٢-١٥٠.

(٥) ينظر: ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨، ١/ ٢١٩، و٣/ ١١٨، و٣/ ٦٠٤.

(٦) ينظر: المصدر نفسه، ٢/ ٣٥٦.

(٧) ينظر: إبراهيم بن عمر، الجعبري: **جميلة أرباب المراصد**، دمشق، دار الغوثاني، ٢٠١٠، ص ٢٣٦.

خاتمة

لم تكن نظرية نشأة القراءات بسبب تجرد الخط الذي كُتِبَتْ به المصاحف العثمانية من النَّقْطِ والشَّكْلِ بمعزل عن فكرة أوسع عن قضايا القرآن الكريم يقول بها المستشرقون الذي كتبوا في تاريخ القرآن، تبدأ بنزع صفة الوحي الإلهي عن القرآن الكريم، وقد لا تنتهي بنفي التدوين المنظم والجمع الكامل لنصه، ولكني خَصَّصْتُ هذا البحث لدراسة تلك النظرية لكونها من القضايا التي ابتعد فيها المستشرقون عن الحقيقة العلمية والوقائع التاريخية، وهم يبحثون في تاريخ القرآن.

وقد بدأت البحث بتقرير حقيقة أن الخط الذي كُتِبَتْ به المصاحف العثمانية كان مجردًا من النقاط والحركات، ثم تتبعت جذور النظرية عند المستشرقين، وتوقَّفتُ عند أكثرهم تفصيلًا لها وهو جولدتسيهر، الذي جعل تجرد الخط أهم أسباب نشأة القراءات.

وتوقَّفتُ عند حديث برجشتراسر عن الموضوع، وبدا لي أنه لم يُرِدْ أن يصرِّح بخطأ جولدتسيهر فيما ذهب إليه، حين قال: "لم يحدث في القراءات السبع إلا استفادة محدودة من الحرية الكبيرة التي أتاحها غموض الحرف الكوفي الذي كان سببه نقص نقط الحروف، وأكثر ندرة من ذلك هو الاختلاف عن الرسم"، وإن كان كلامه يؤدي إلى تلك النتيجة، فهو يرى أن كثيرًا من ظواهر القراءات القرآنية ترجع إلى اتجاهات لغوية للعرب وقت تنزيل القرآن، ولم تكن ناتجة عن تجرد الخط الذي كُتِبَتْ به المصاحف.

وعَرَضْتُ في البحث وجهة نظر المصادر الإسلامية في أصل القراءات القرآنية، التي تتلخص في أن القراءات نتجت عن رخصة الأحرف السبعة، وأن الصحابة قد تلقوا القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ، وقرؤوا القرآن بهذه القراءات، وأخذها عنهم التابعون مشافهة، وأن القراء المشهورين الذين تُنْسَبُ إليهم القراءات السبع أو العشر أخذوها عن التابعين، ولم تكن اجتهادًا منهم.

وختمت البحث بالموازنة بين وجهتي النظر في أصل القراءات، وأحسب أن كل باحث منصف سوف يجد وجهة نظر المصادر الإسلامية أرجح من النظرية الاستشراقية التي تُرْجِعُ نشأة القراءات إلى خصوصية الخط، وأن القراء اختلفوا في قراءة النص كما يختلف الباحثون في قراءة النقوش القديمة، وشتان بين الأمرين، فليس ثم علاقة بين كاتب النقوش وقارئها، ومن هنا جاء الاختلاف في قراءة كلماتها، أما المصحف فهو محفوظ في الصدور قبل أن يُدَوَّنَ في السطور، وكانت القراءات معروفة قبل كتابة المصاحف، فكيف تنشأ عنها؟!

وأتمنى أن يعيد المستشرقون وتلامذتهم النظر في هذه القضية، فليس أسوأ في العلم من الإصرار على الخطأ بعد أن تتضح الحقيقة، وأتمنى أن يعيدوا النظر في طريقة تناولهم لتاريخ القرآن، فقد رسموا له صورة مشوهة تَصْرِفُ كثيرًا من الناس عن نور الهداية التي جاء بها، فيحملوا عندئذ أوزارهم وأوزار الذي يضلونهم.

هذا، والله تعالى الموفق للصواب، والهادي إلى سواء السبيل.

المصادر والمراجع

أولًا- المصادر والمراجع العربية:

- الأصفهاني، حمزة بن الحسن: **التنبيه على حدوث التصحيف**، تحقيق محمد أسعد طلس، ط ٢، دار صادر، بيروت ١٤١٢هـ= ١٩٩٢م.
- ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم: **إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل**، تحقيق د. محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٣٩٠هـ= ١٩٧١م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل: **الجامع الصحيح**، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ.
- بروكلمان، كارل: **تاريخ الأدب العربي** (ج١)، ط ٥، ترجمة د. عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر ١٩٨٣م.
- بعلبكي، رمزي: **الكتابة العربية والسامية**، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨١م.
- بلاشير: **القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره**، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٤م.
- بياترس، جرندلر: **تاريخ الخطوط والكتابة العربية من الأنباط على بدايات الإسلام**، ترجمة د. سلطاني المعاني، وفردوس العجلوني، بيت الأنباط ٢٠٠٤م.
- الترمذي، محمد بن عيسى: **سنن الترمذي**، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٨م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **شرح حديث أنزل القرآن على سبعة أحرف**، تحقيق د. محمد إبراهيم فاضل المشهداني، عالم الكتب الحديث، إربد ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م.
- جبل، محمد حسن حسن: **الرد على المستشرق اليهودي جولدتسيهر في مطاعنه على القراءات القرآنية**، ط ٢، كلية القرآن الكريم بطنطا ٤٢٣هـ= ٢٠٠٣م.
- الجبوري، سهيلة ياسين: **أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي**، مطبعة الأديب، بغداد ١٩٧٧م.
- ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد:
  - **غاية النهاية في طبقات القراء**، تحقيق برجستراسر، المطبعة الرحمانية ١٣٥١هـ.
  - **النشر في القراءات العشر**، راجعه الشيخ علي محمد الضباع، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (تصوير: دار الكتب العلمية).
- الجعبري، إبراهيم بن عمر: **جميلة أرباب المراصد في شرح عقيلة أتراب القصائد**، تحقيق د. محمد خضير مضحي الزوبعي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان: **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءة**، تحقيق علي النجدي ناصف وآخرين، القاهرة ١٩٦٦م.
- جولدتسيهر، إجنتس: **مذاهب التفسير الإسلامي**، ترجمة د. عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي بمصر ١٣٧٤هـ= ١٩٥٥م.
- ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، رقمه محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩هـ.
- الحمد، غانم قدوري:
  - **أبحاث في رسم المصحف وضبطه**، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان ١٤٣٩هـ= ٢٠١٨م.
  - **أبحاث في العربية الفصحى**، دار عمار، عمان ٢٠٠٥م.
  - **علم الكتابة العربية**، دار عمار، عمان ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله: **معجم الأدباء**، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م.
- ابن حنبل، أحمد: **مسند الإمام أحمد**، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢١هـ= ٢٠٠١م.

- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي: **تاريخ بغداد**، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.
- الداني، أبو عمرو عثمان بن سعيد:
  - **البيان في عد آي القرآن**، تحقيق غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث والوثائق، الكويت ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م.
  - **التيسير في القراءات السبع**، تحقيق أوتو برتزل، مطبعة الدولة، إستانبول ١٩٣٠م.
  - **جامع البيان في القراءات السبع**، تحقيق مجموعة من الباحثين، جامعة الشارقة ١٤٢٨هـ= ٢٠٠٧م.
  - **المحكم في علم نقط المصاحف**، تحقيق غانم قدوري الحمد، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق – بيروت ١٤٣٨هـ= ٢٠١٧م.
- ابن أبي داود، عبد الله بن سليمان: **كتاب المصاحف**، تحقيق د. محب الدين عبد السبحان واعظ، ط٢، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٢م. (وتحقيق آرثر جفري، المطبعة الرحمانية بمصر ١٣٥٥هـ= ١٩٣٦م، في بعض المواضع).
- ديروش، فرانسوا: **محاضرات في الكولج دو فرانس**، ٢١٠٥م، ترجمة د. عبد الرزاق إسماعيل هرماس، على هذا الرابط: https://vb.tafsir.net/tafsir45327/#.WktowLcjTIU
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار**، تحقيق د. طيار آلتي قولاج، مركز البحوث الإسلامية، إستانبول ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م.
- الراجحي، عبده: **اللهجات العربية في القراءات القرآنية**، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.
- الرازي، أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد: **معاني الأحرف السبعة**، تحقيق د. حسن ضياء الدين عتر، دار النوادر ١٤٣٣هـ= ٢٠١٢م.
- الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، ط٥، دار العلم، بيروت ١٩٨٠م.
- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع: **الطبقات الكبرى**، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.
- شاهين، عبد الصبور: **القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث**، دار القلم ١٩٦٦م.
- ابن شبة، عمر بن شبة البصري: **تاريخ المدينة المنورة**، تحقيق فهيم محمد شلتوت ١٣٩٩هـ.
- شلبي، عبد الفتاح إسماعيل: **رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم**: دوافعها والرد عليها، ط ٢، دار الشروق، جدة ١٩٨٣م.
- الشيرازي، نصر بن علي ابن أبي مريم: **الموضح في وجوه القراءات وعللها**، تحقيق د. عمر حمدان الكبيسي، الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن بجدة ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م.
- الطبراني، سليمان بن أحمد: **المعجم الكبير**، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط٢، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود: **مسند أبي داود الطيالسي**، تحقيق د. محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر ١٤١٩هـ= ١٩٩٩م.
- عباس، فضل حسن: **قضايا قرآنية في الموسوعة البريطانية، نقد مطاعن ورد شبهات**، دار الفتح، عمان ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م.
- أبو عبيد، القاسم بن سلام:
  - **غريب الحديث**، دار الكتب العلمية، ط٢، بيروت ١٤٢٣هـ= ٢٠٠٣م.
  - **فضائل القرآن ومعالمه وأدبه**، تحقيق مروان العطية وصاحبيه، دار ابن كثير، دمشق– بيروت ١٤١٥هـ= ١٩٩٥م.
- العسكري، أبو أحمد الحسن بن عبد الله: **شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف**، تحقيق عبد العزيز أحمد، البابي الحلبي بمصر ١٩٦٣م.
- العطار، الحسن بن أحمد، أبو العلاء الهمذاني: **التمهيد في معرفة التجويد**، تحقيق غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان، ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م.

- العقيقي، نجيب: **المستشرقون**، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.
- القاضي، عبد الفتاح عبد الغني: **القراءات في نظر المستشرقين والملحدين**، دار مصر للطباعة ١٤٠٢هـ.
- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: **تأويل مشكل القرآن**، تحقيق السيد أحمد صقر، القاهرة ١٩٧٣م.
- القيسي، مكي بن أبي طالب:
  - **الإبانة عن معاني القراءات**، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٠م.
  - **الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها**، تحقيق د. محيي الدين رمضان، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٣٩٤هـ= ١٩٧٤م.
- ابن مجاهد، أحمد بن موسى بن العباس: **كتاب السبعة في القراءات**، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ١٤٠٠هـ.
- المنتوري، محمد بن عبد الملك: **شرح الدرر اللوامع في مقرأ الإمام نافع**، تحقيق الصديقي سيدي فوزي، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ= ٢٠٠١م.
- المنجد، صلاح الدين: **دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي**، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧٢م.
- المهدوي، أبو العباس أحمد بن عمار: **شرح الهداية**، تحقيق د. حازم سعيد حيدر، مكتبة الرشد، الرياض.
- ابن النديم، محمد بن إسحاق: **الفهرست**، تحقيق رضا - تجدد، طهران ١٩٧١م.
- نولدكه، تيودور: **تاريخ القرآن**، تعديل فريديرش شفالي، ترجمة د. جورج تامر، دار نشر جورج ألمز، نيويورك ٢٠٠٠م.

ثانيًا- المصادر والمراجع الأجنبية:

References

- Al-Askari, al-Hasan b. Abdallah, *Sharh ma Yaqa fih al-Tashif wa al-Tahrif*, ed. Abdel Aziz Ahmad, (*in Arabic*), (Cairo: Matbaat al-Babi al-Halabi, 1963).
- Al-Dani, Uthman b. Said, *al-Bayan fi Add Ay al-Quran*, ed. Ghanim al-Hamad, (*in Arabic*), (Kuwait: Markaz al-Makhtutat wa al-Turath wa al-Wathaiq, 1994).
- Al-Hamad, Ghanim, *Abhath fi Rasm al-Mushaf wa Dabtih*, (*in Arabic*), (Amman: Jamiyyat al-Muhafaza ala al-Quran al-Karim, 2018).
- Al-Mahdawi, Ahmad bin Ammar, *Sharh al-Hidayah*, ed. Hazim Saeed Haydar, (*in Arabic*), (Riyadh, n.d.).
- Al-Qaysi, Makki bin Abi Talib, *al-Ibana an Maani al-Qiraat*, ed. Abdel Fattah Shalabi, (*in Arabic*), (Cairo: dar Nahdat Misr, 1960).
- Al-Shirazi, Nasr b. Ali, *Al-Muwaddah fi al-Qiraat wa Ilaliha*, ed. Umar Hamdan al-Kubaysi, (*in Arabic*), (Jeddah: al-Jamaa al-Khayriyya li Tahfiz al-Quran, 1993).
- Ibn Mujahid, Ahmad b. Musa, *Kitab al-Saba fi al-Qiraat*, ed. Shaqi Dayf, (*in Arabic*) (Cairo: Dar al-Maarif, 1400 AH).